الرسالة الشاغية الرسالة الإعجازة

تأليف إمام البلاغيين عبد القاهر الجرجاني

شرع وتفسير مع الأراسة في وجوه اللاعجاز الدكتور عبد القادر حسين





الرسالة الشافية في الإعجاز

الرسالة الشافية في الإعجاز

تأليف إمام البلاغيين عبد القاهر الجرجاني

شرح وتفسير مع دراسة في وجود الإعجاز الدكتور/ عبد القادر حسين



الرسالة الشافية في الإعجاز

شرحوتفسير اللكتور/عبدالقلارحسين

الكتساب: الرسالة الشافية في الإعجاز المسؤلسف: الدكتور/ عبد القادر حسين تاريخ النشر: ٢٠١١م - ٢٠٢٢ه م ٢٠١١ه رقم الإيداع: ٢٠١١/ ٢٠٠٨ الترقيم اللولى: ٥-101-463-779-978

جميع حقوق الطبع محفوظة لدار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

القاهرة - مصر

ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على التكسبيوتر أو برمجته على السطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by © Dar Ghareeb for printing pub. & dist.

Cairo - Egypt

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الناشييره

دارغريب للطباعة والنشر والتوزيع

الإدارة والمطابع

۱۲ شارع نوبار الاطوغلی (القاهرة) تلیطون، ۱۲ شارع نوبار الاطوغلی (القاهرة) تلیطون، ۲۰۲۷۹۵٤۲۰۷۹ فاکس، ۲۰۲۷۹۵٤۲۰۷۹ التوزیه

٣ شارع كامل صدقى الفجالة - القاهرة تليفون، ٢٠٢٥٩١٧٩٥٩.

www.darghareeb.com

بِنَيْ الْمُأْلِحُ الْجَيْرِينَ

مقدمة

منازل الكلام يعلو بعضها بعضًا، ويفضل بعضها بعضًا، والعرب في ذلك هم الأصل في حسن القول، وجمال العبارة، ومن عداهم يعد تبعًا لهم. فمن جاء بعدهم يحاكونهم ويسيرون على منوالهم.

فالعرب هم أفضل الناس قاطبة في البلاغة والخطابة، ولا ينكر ذلك إلا جاهل أو معاند.

والرسول على عين تحدى العرب أن يأتوا بمثل القرآن، تحداهم المرة تلو الأخرى، فاعترفوا بعجزهم عن معارضته والإتيان بمثله في كل مرة. فالقرآن له منزلته السامقة التي لا يقدر الخلق على مطاولته أو مجاراته.

عبد القادر حسين

بنِيْرَالِمُالِحُزِ الْجَيْزِ

الإمام عبدالقاهرالجرجاني

(1434)

هو الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، أخذ النحو عن الشيخ أبي الحسين محمد بن الحسن (ت٤٢١هـ) ابن أخت أبي علي الفارسي (ت٣٧٧هـ) واقتصر على الأخذ منه؛ لأنه لم يلق شيخًا مشهورًا في علم العربية غيره، حكى عنه كثيرًا، ونهل من ينابيع علمه فضلاً عظيمًا.

كان عبد المقاهر عالمًا بالنحو والبلاغة، قطع فيهما أشواطًا بعيدة، ومؤلفاته تشهد بذلك، وإمامًا من كبار أئمة العربية والبيان، شافعي المذهب، متكلمًا على طريقة الأشاعرة.

تَمَثَّلُ تراث أسلافه وخاصة المبرزين منهم كسيبويه (ت١٨٠هـ)، والأمدي (ت٣٩٠هـ)، وعلي بن عبد العزيز الجرجاجي (ت٣٩٦هـ)، كما أخذ عن ابن جني (ت٣٩٦هـ)، ونقل من خصائصه صفحات كاملة في كتابه دلائل الإعجاز.

أصبح عبد القاهر قبلة طلاب العلم، يرتحلون إليه حيثما كان، يرشفون من ينابيع علمه، وينهلون من مصادر حكمته، يأخذون عنه مشافهة، أو ينقلون عنه كتابة.

من أبرز من تأثر به: الزمخـشري (ت٥٣٨هـ) في كتـابه الكشاف في تفسـير القرآن، وأفاد منه كثيرًا في تطبيقاته البلاغية.

وسار الفخر الرازي (ت٦٠٦هـ) على نفس الدرب، فلخص كتابي عبدالقاهر: الدلائل والأسرار، وعرض خلاصة ما نقل عن فكر عبد القاهر في كتابة نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، وصاغ فكره في قوالب محكمة، وقواعد ثابتة، لا تخرج عمًّا كتبه عبد القاهر بحال من الأحوال.

وخَيْرُ من أفاد من عبد القاهر: السكاكي (ت٦٢٦هـ) الذي صاغ كتابه المفتاح-الجزء الثالث- الذي أفـرده للبلاغة، ناقلاً عن عـبد القاهر محتـذيًا حذوه، وإن كان منهجـه يختلف عن عبـد القاهر اختلافًا جوهريًا، فعـبد القاهر ينحـو إلى التحليل والموازنة والدراسة، بينما السكاكي يلجأ إلى التقـرير والتلخيص ووضع القاعدة، غير أنه في كل الأحوال لم يخرج عما ارتسمه عبد القاهر في دلائله وأسراره .

وتبعمه في ذلك علماء كثيرون حتى تحولت البلاغمة على أيديهم إلى شروح وتلخيصات، بعد أن كانت مبهرة على يد عبد القاهر.

سار هــؤلاء الأعلام الثــلاثة: الزمخــشري، والرازي، والسكاكي في ركــاب عبدالقاهر، مقتفين أثره يربطهم جميعًا رباط واحد، هو رباط البيئة الجغرافية، حيث إنهم ينتسبون إلى إقليم جغرافي واحد.

وللإمام عبــد القاهر كتب عديدة في فــروع مختلفة: في النحــو والتصريف، والبلاغة والتفسير، والأدب والعروض.

فله في النحو والتصريف:

- ١- المغني: هو شــرح لكتاب الإيضــاح لأبي عليّ الفــارسيّ (ت٣٧٧هـ) في ثلاثين مجلداً.
 - ٢- المقتصد: اختصر فيه كتاب الإيضاح، وجعله في ثلاثة مجلدات .
 - ٣- الإيجاز: هو مختصر شاف لكتاب الإيضاح .
 - ٤- الجمل: تحدث فيه عن العامل في الاسم والفعل والحرف.
 - ٥- التخليص: وهو شرح لكتاب الجمل.
 - ٦- العوامل المائة في النحو: وكان لهذا الكتاب صدى عظيم حتى نظم شعرًا.
 - ٧- العمدة في التصريف.

وفي البلاغة:

- ٨- دلائل الإعجاز: تحدث فيه عن نظرية النيظم، والأعمدة التي تقوم عليها من ائتلاف في الكلمات، وترتيب لمعانيها.
 - ٩- أسرار البلاغة: ويُعُد من أعظم ما كتب في الأدب العربي في البلاغة والشعر.

وفي علوم القرآن:

١٠ الرسالة الشافية في الإعجاز: وهي التي نقوم بتحقيقها وتفسيرها وهي التي بين يدي القارئ.

١١- شرح الفاتحة: ذكر في طبقات الشافعية، وطبقات ابن قاضي شهبة.

١٢ - شرح على كتاب إعجاز القرآن للواسطى (ت٣٠٦هـ) .

١٣ - درج الدرر: ذكره بروكلمان .

وفي الأدب:

١٤ - المختار من دواوين المتنبي والبحتري وأبي تمام، منشور في الطرائف
 الأدبية للميمنى.

وفي العروض: كتابان لم يعرف موضعهما بعد، وهما:

١٥ - التذكرة: ذكر في طبقات ابن قاضي شهبة ٢/ ٩٥ .

١٦ – المفتاح: ذكر في كشف الظنون ٢/ ٦٢٣ .

وبعد.. فهذه ترجمة موجزة تكشف عن حياة عبد القاهر الحافلة بالعلم والإبداع.. وكتبه الزاخرة بالرأي المبتكر والنظرية الفذة...)

إعجازالقرآن

بقلم / دكتورعبد القادر حسين

للرسول عَلَيْكُم كثير من المعجزات التي تدل على صدقه، وأنه مرسل من قبل الله سبحانه وتعالى.

وأفضل هذه المعجزات وأبعدها أثرًا وأشدها تأييدًا، هي معجزة القرآن الذي نزل بأفصح اللغات وأبلغ البيان، فقد سحر القرآن العرب منذ أن استمعوا إليه في اللحظة الأولى، سواء من شرح الله صدره للإسلام، وأنار بصيرته، أو من طبع على قلبه وجعل على بصره غشاوة.

فالوليد بن المغيرة، وهو من أفصح العرب وأقواهم بيانًا، وأعظمهم بلاغة، يقول عن القرآن الكريم: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثُرُ ﴾ [المدثر: ٢٤].

والقساوسة الرهبان: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيَنَهُمْ تَفْيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾ [المائدة: ١٨٣]. فالقرآن من شأنه إذا استمع إليه إنسان أن تتحرك مشاعره، ويهتز قلبه طربًا، أو يقشعر بدنه خوفًا، أو ينعصر فؤاده رجاء، لما فيه من جمال في الأسلوب، وقوة في العبارة، وموسيقية في الإيقاع، والله يصف كتابه بأنه ﴿ أَحْسَنَ الْحَدَيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَّنَانِي تَقْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشُونَ رَبَّهُمْ ثُمَّ قَلِينُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشُونَ رَبَّهُمْ ثُمَّ قَلِينَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣].

فروعة القرآن تدرك ولا توصف شأن النغم الحلو، والوزن المستقيم، فيتسلل إلى أغوار النفس، ويستقر في أعماقها. ولكن العرب كما يصفهم القرآن ﴿قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ الزخرف:٥٨ ، وأعداء ألداء: ﴿وَتُنذِر بِهِ قَوْمًا لُدًا﴾ إمريم:٩٧ ، فأخذوا يتناولون القرآن بالتشكيك تارة، فـزعم بعضهم أنه في متناول أيديهم، وأنهم قادرون عليه: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ الانفال:٣١ . وبالتهجم تارة أخرى، فأرجفت طائفة بأنه كذب، وقد صنعه محمد من تلقاء نفسه، وافتراه على الله: ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرَى﴾ إسا: ٤٢ ، وحرضوا على النفور

منه، وترك الإصغاء له، ودَعَوا إلى الطعن فيه، فكانوا يقولون: ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغُواْ فِيه لَعَلَّكُمْ تَغْلُبُونَ﴾ إنصلت:٢٦].

ولكن الله رد كيد الكافرين إلى نحورهم، وأدخل الياس على قلوبهم حين تحدى الرسول بلغاء العرب وفصحاءهم أن يأتوا بسورة من مثله، ولكنهم عجزوا وأعرضوا عن معارضته، فكان ذلك داعيًا إلى الاعتراف بإعجاز القرآن، وقصورهم أمام بلاغته.

والقرآن ليس معجزًا للعرب وحدهم، وإنما هو معجز للعربي وغير العربي؛ لأن دعوة الإسلام دعوة عالمية ليست مرتبطة بلغة معينة، ولا بوطن خاص، وإنما هي دعوة تحتوي العالم بأسره، ومن أجل ذلك كان القرآن معجزًا لجميع الأمم والأجناس.

وحجة القرآن على العرب الفصحاء كحجته على غير العرب من الأعاجم، كما أن حجة موسى عليه السلام في قلب العصاحية كانت لأمهر السحرة وغير السحرة. وحجة عيسى عليه السلام في إحياء الموتى لم تكن لأعظم الأطباء وحدهم، وإنما كانت للطبيب الماهر والخامل، وغير الطبيب على السواء، وإذا عجز أمهر السحرة وأعظم الأطباء عن الإتيان بمثل ما أتي به موسى وعيسى كان ذلك أدعى إلى عجز غيرهم.

كذلك الشأن في معجزة القرآن، أتى به محمد عاليا الأفصح الناس وأقدرهم على نظم الكلام العربي، ورغم حرصهم على تكذيب الرسول، وإفساد دعوته، لم يفلحوا في مجاراته، ولم يستطيعوا تكذيبه.

وإذا كان العرب الفـصحاء عاجزين عن مـجاراة أسلوب القرآن في فصــاحته وبلاغته، فغيرهم من الأعاجم أعجز .

وقد يقول قائل: إن الأعجمي الذي لا يفهم العربية لا يدرك ما في أسلوب القرآن من نظم معجز، وبلاغة عجيبة، ولا يدري من أين يكون إعجازه، وكيف تكون بلاغته، وعندئذ تسقط الحجة في الإعجاز. نقول: إن الإعجاز لغير العربي يبدو في أشياء أخر فوق البلاغة والفصاحة التي لا يدرك مراميها، فكل يوم تطلع علينا أشياء جديدة، ومكتشفات حديثة لا نجد تناقضًا بينها وبين ما في القرآن من نهج اتبعه في التعبير عنها في تناسق تام لا نفرة فيه، بحيث يدرك الأعجمي من هذا التناسق في التعبير، والدقة في الأداء القرآني الذي يتفق وما يكتشفه العلم حديثًا، سرًا من أسرار الإعجاز في الأسلوب البياني للقرآن.

وجوه إعجاز القرآن

محمد عائي النبي الأمي الصادق تحدى العرب الذين بلغوا النهاية في حسن القول وبراعة الكلام، تحداهم أن يعارضوا القـرآن، فهو كلام الله، نزل به جبريل الأمين، وما كان أمره كذلك يـنبغي ألا يكون في طوع الـبشـر مجـاراته أو في مقدروهم مسحاكاته، وقد سلك السرسول عليك معهم سبل الحجاج، فبدأ بالأصعب، ثم تدرج إلى الأسهل، وكلما عرض عليهم صورًا من التحدي أخفقوا واعترفوا بعجزهم، تحداهم أولاً أن يأتوا بمثل القرآن: ﴿ قُل لَّئن اجْتَمُعُت الإِنسُ وَالْجِنَّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لَبَعْضِ ظَهِيرًا ﴾ إلاسراء: ٨٨١ ، فصعب عليهم الأمر واستعصى عليهم القول، فأراد الله أن يخفف عنهم، فتحداهم ثانيًا أن يأتوا بعشر سـور من مثله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتُرَاهُ قُلْ فَأَتُوا بعُشْر سُورِ مُثْلُه مُفْتَريّاتٍ ﴾ [هود: ١٣] ، فلم يأتوا بهذه السور التي تعد على الأصابع إذ لا قبل لهم بها؛ ولا طاقة لديهم بمثلها، فتـدرج التحدي معهـم إلى أقصى ما يمكن أن يكون عليه الأمـر، تحداهم بسورة واحدة فـقط، ليس شرطًا أن تكون في معنى السورة التي يعارضونها؛ بل بأي معنى من المعاني، ولكن في جــمال نظم القرآن وإبداعه: ﴿ وإِن كُنتم فِي ريب مِمَّا نَزُّلْنَا عَلَىٰ عَبدنَا فَأَتُوا بسورة من مَّثله وادعوا شهداءكم من دُون الله إن كُنتَم صَادقينَ (٣٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا ولَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةَ ﴾ [البقرة: ٢٤،٢٣] . فالله وصف رسوله في هذه الآية بالعبودية وأضاف العبودية إليه، وهذا تشريف للنبي عَلَيْكُمْ وتقريب له، حتى يكون الناس جميعًا عبيدًا لله سـبحانه لا يستكبرون عن عبادته، وإن كانوا يرتابون في القرآن، وأنه منزل من قـبل الله، فليأتوا بسورة من مـثله، من طوال السور أو من قــصارها، وفي ذلك تقــريع للمـعاندين وســخرية مــن المكابرين، وتنديد بمن يرتاب في معجزة الرسول الأمي، ثم اشتد القرآن في القسوة عليهم حتى تندّر بهم

وطالبهم أن يدعوا من دون الله: من الناس أو الأوثان من يشهد لهم بصدقهم وقدرتهم، وحسب محمد أن يكون الله قد شهد له بالصدق في دعواه.

ثم زاد أمر التحدي والإصرار عليه، ولكن طاقتهم أضعف من احتماله، ولذلك يقرر القرآن في جزم شديد مخاطبًا المعاندين: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ ﴿البقرة: ٢٤﴾ بأنهم ما استطاعـوا ذلك في الماضي والحاضر، ولن يستطيـعوه أيضًا في المستقبل، فالخطاب للبشر جميعًا، وفي عصر الرسول وبعد عصر الرسول، ولكل الأجيال المقبلة، فهم عاجزون وإن كانوا لا يستجيبون؛ لأن الله ختم على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة، فألبسوا الحق بالباطل، وتمادوا في جهلهم، وأصروا على عنادهم، واستكبروا استكباراً.

أجل تحداهم محمد أن يأتوا بمثل القرآن، أو أقصر سورة منه، ليس في معناها بل بأي معنى شاءوا، ولكن بجمال نظمه وحسن أسلوبه.

يقول الجاحظ (ت٥٥٥هـ): "ولا يجوز أن يكون مثل العرب في كثرة عددهم والكلام كلامهم وهو سيد عملهم، وقد فاض بيانهم حتى قالوا في الحيات والعـقـارب والذئاب والكلاب والخنافس، وكـل ما دبّ ولاح لـعين وخطر على قلب، ولهم - بعدُ- أصناف النظم، وضروب التأليف. . ثم لا يعارضه مُعارض، ولم يتكلف ذلك خطيب ولا شاعر.

وهل يذعن الأعراب وأصحاب الجاهلية للتقريع بالعجز، ثم لا يبذلون مجهودهم، وهم أشد خلق الله أَنْفَه، وأفرطهم حمية؟! (١).

فالقرآن معجز بنظمه، وصياغـة أسلوبه، ودقة ألفاظه، والتثام بعضها ببعض، فالجمل متشابكة يرتبط بعضها مع بعض، ويدل أولها على آخرها».

ويستمر الجاحظ في إبراز روعة القرآن وتميزه عن غيره من الأساليب العربية، «فلو أن رجلاً من العرب قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة لتبين له في نظامها ومخرجها، وفي لفظها وطبعها أنه عاجز عن مثلها، ولو تحدث بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها. . . ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف سورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعة وتأليفه ومخرجه، لما قدر على ذلك»(٢).

⁽١)، (٢) رسائل الجاحظ- السندوبي .

الصيرفة

وإذا كان الرسول على قلط اللهم في دعوته بترك أديانهم، وهجر أوثانهم، والتضحية بأموالهم، وبذل أنفسهم في سبيل الله، وأن يصبروا ويصابروا، وأن يتخلوا عن كل ما ألفوه مما يتنافى مع الرسالة الجديدة، فقد شق الأمر على نفوسهم، وناءت به كواهلهم، وهم قد درجوا على الأنفة والحمية الجاهلية ورفض الخضوع، والإذعان للطاعة، كل هذه الصفات جعلت العرب في موقف الدفاع عن التقاليد والتمرد على الرسالة المحمدية، فتوافرت الدواعي لديهم لإبطال حجة الرسول على الرسالة على الناس أجمعين، إذن فدواعي المعارضة للمعجزة التي أتى بها محمد للدلالة على صدقه متوافرة، فإذا لم يقدروا على المعارضة ولم يجدوا إليها سبيلاً؛ كان ذلك دليلاً على عجزهم، وهل ثمة علامة للعجز أكبر من ذلك .

وليس أعجب من قول النظام (۱) أحد علماء المعتزلة، من أن القرآن نفسه غير معجز، فهو في رأيه كتاب مثل سائر الكتب، لبيان الأحكام من الحيلال والحرام، والعرب إنما لم يعارضوه لأن الله صرفهم عن ذلك وسلب علمهم: أي أن الإعجاز في المنع وليس في القرآن، إذ إن العرب فيهم ذلاقة لسان وانطلاق عبارة، وهم قادرون على حوك الكلام وصياغته في أسلوب جميل خلاب، أي أنهم قادرون على أن يأتوا بسورة من مثل القرآن بلاغة وفصاحة، ولكن الله صرف هممهم عن مجاراة القرآن، والرجل إذا كان قادرًا على القيام بشيء، وعنده الحافز والرغبة في القيام به، فسيقوم به لا محالة، فإذا توافرت له الأسباب من قدرة وحافز ورغبة، ثم لا يستطيع القيام به، فذلك شيء خارج عن العادة، إذ ليس ثمة ما يعوقه ويعجزه عن تحقيق غرضه، «كأن فذلك شيء خارج عن العادة، إذ ليس ثمة ما يعوقه ويعجزه عن تحقيق غرضه، «كأن عني مثلاً نبي ومعجزته في تحريك يده، ويطلب من القوم تحريك أيديهم فيعجزون رغم صحة أبدانهم ونشاط جوارحهم، فلما لم يقدروا كان ذلك دليلاً على صدقه، (۱)

⁽١) الألوسي: ١/ ٢٧، الملل والنحل: ١/ ٦٧، أمالي المرتضي: ١/ ١٨٧ .

والنظام: هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام، شيخ الجاحظ، وأحد أعمدة المعتزلة، توفي سنة ٢٧٤هـ . (٢) بيان إعجاز القرآن للخطابي ص ٢٠ .

والأمر كذلك بالنسبة للقرآن، فهو معجزة الرسول عَلَيْكُمْ ، وطلب من القوم أن يأتوا بمثله فصاحة وبلاغة، فيظهر عـجزهم وبلاغتهم، وقد وجدوا في أنفسهم ما يشبه الآفة حين عسرض عليهم ما يحيل السهل صعبًا، وإذا كان العائق خارجًا عن العادات صار كسائر المعجزات.

وهذا دليل ظاهر على أن أمر المعارضة ليس بأيديهم، وإنما هو خارج عن طوقهم، إذ لا يخفي على ذوي البلاغة أن صارفًا إلهيًا قد صرفهم عنها، وهذا يفيد أن القـرآن ليس من صنع البشر، وإنما هو معـجزة الله لنبيه مـحمد عَالَيْكُم ، وأي إعجاز أعظم من أن يعجز البلغاء عن معارضة قول في الظاهر، صرفهم الله

والقول بالصرفة مردود: «لأن العرب ما تكلموا بمـثل القرآن قط، ولم يأت منهم نظيره قسبل مبعث النبي عَلَيْكُم ، ولو نظموا مثله قبل مجيء الرسول لقالوا هذا مثل نظمنا، وإنما صرفنا الله عنه، ولكنهم لم يقولوا ذلك، فدل على أنهم لم يقدروا عليه لا في الحاضر ولا في المستقبل (١) .

وإذا كان الله هو الذي سلبهم القدرة على الإتيان بمثله، فيكون المنع من الله هو المعجز، وليس في القرآن صفة الإعجاز، ولا يستميز بفضيلة عن غيره، مع أن الإجماع متفق على إضافة الإعجاز للقرآن.

والقول بالصرفة فاسد أيضًا بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتُمْعُتُ الْإِنْسُ والجن ﴾ الإسراء: ٨٨ ، إذ لو أن الله صرفهم وسلب عنهم القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم؛ لأنه يكون بمثابة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى مما يحتفل به.

فالقول بالـصرفة نظرية لا نشك في خطئهـا، وفيها مسـاس بالذات العلية لا يليق بمسلم أن يعتقده. والحق أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من الخلق، فالعربي الفـصيح كان يصنع الخطبة أو يقرض القـصيدة ويستفرغ فـيها كل جهده، ويعود عليـها بالتنقيح المرة تلو المرة، وقد يستغرق ذلك حـولاً كاملاً، فإذا

⁽١) نكت الانتصار ص ٢٨٩.

أعطيت لنظيره عـالجها بالتـبديل والتنقيح، ثم لا يزال الأمـر كذلك موضع تغيـير

أما كتاب الله، فلو نزعت منه لفظة، أو أردت أن تغير فيه كلمة ما استطعت أن تأتي بلفظة أو كلمة أخرى أفضل منها، وإذا كان العربي القديم يتميـز بحسه اللغوي وقريحته النفاذة، وظهرت له براهين البراعة في نظم القـرآن وعجز عنها، فإننا الآن على الـعجز أظهـر، وبالتسليم أولى؛ لأننا قــاصرون عن مرتبــة العرب الأقدمين في سلامة ذوقهم اللغوي، وجـودة قريحتهم في تأليف الكلام، ولو كان الإعجاز بالصرفة استعظموا فصاحة القرآن وتعجبوا لبلاغته وحسن فصاحته، والرواية المشهورة عن إعجاب الوليد بن المغـيرة بالقرآن وحلاوته عند الإصغاء إليه أعظم شاهد على ذلك .

الإخبارعنالستقبل

وزعم قوم إن إعجاز القرآن مصدره فيما تضمن من الإخبار عن الغيب، وعن أشياء تحدث في المستقبل، وقد تأكد صدق هذه الأخبار بوقوعها، وذلك ليس في قدرة البشر ولا طاقة لهم به، ف من وعد الله لنبيه (۱) أنه سيظهر دين الإسلام على الأديان كلها حين قال له: ﴿هُو الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الأديان كلها حين قال له: ﴿هُو اللّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى اللّذِينِ كُلّهِ وَلَو كُوهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣] . وقد تحقق وعد الله لنبيه عليه فظهر الإسلام على غيره من الأديان الأخرى، وانتشر في شتى البقاع، وأصبحت له الغلبة حيثما كان، ولذلك كان أبو بكر وطي إذا أرسل جيوشه للغنو عرفهم بوعد الله، وأطلعهم على نصرته لدينه الحنيف حتى ينقوا بالنصر، ويتيقنوا من الفوز، ورأى أبو بكر الصديق ذلك وصدق الله وعده .

وعمر بن الخطاب ولحق كان يفعل مثل ذلك في أيامه ويعدهم بالفتوح، ونشر الإسلام، فما وعدهم ربهم حقًا، ولابد أن وعده يمضي وينفذ، ﴿وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ مَن قَبْلِهِمْ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمَلُوا الصَّالِجَات لَيَسْتَخْلُفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلُفَ الّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُ مَن لَهُمْ وَلَيُ بَدِّلُهُم مِّن بَعْد خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور:٥٥] وكان ذلك ما وعدهم الله تعالى، فاستخلف الأثمة الأربعة الخلفاء الراشدين.

وقوله تعالى: ﴿قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغَلِّبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ أن عمران: ١٢ ، أي قل لليه ود الذين مالئوا قريشًا بعد هزيمة المسلمين في غزوة أُحُد، وتمردوا عليك بنقض العهد: إنكم ستغلبون في القتال، وصدق الله وعيده، فانقلبوا مهزومين مدحورين، وغير ذلك كثير من آيات القرآن الكريم.

000

⁽١) إعجاز القرآن ص٧٧، التمهيد ص ١٣٠، المعترك: ١/ ٢٣٩.

أخبارالأممالبائدة

ومن الوجوه المعجزة في القرآن الكريم إخباره عن أحوال الأمم الماضية والقرون السالفة (١) ، وقصص الأولين، وسير الماضين، وما حدث معهم أو كان في عصرهم، وهذا أمر لا يمكن تحصيله إلا بمعرفة القراءة والكتابة، وكثرة الاطلاع، ومجالسة العلماء وأهل السير والأخبار والأخبار والأخبار والأخبار والأخبار والأخبار والأخبار وتلقي العلم على كاتبا، ولم يكن أيضًا ممن عرف بمجالسة أهل السير والأخبار وتلقي العلم على أيديهم، ولو كان يختلف إلى العلماء والمشتغلين بصناعة الأخبار ما خفي أمره على أحد، فإذا انتفت عن الرسول صفة القراءة والمدارسة، كان من البدهي أن وقوفه على هذه الأخبار من لدن الله وتأييد من وحيه، وهذا وجه الإعجاز في القرآن، فقد حكى هذه الأخبار حكاية من شهدها وحضرها: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِر مِن رَبّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلَانُسُهُ لَقَوْم يَعْلَمُونَ ﴾ الانعام: ١٠٥٠ اليس الأمر كما زعموا أن وليقُولُوا دَرُسْتَ وَلَنْبَينَهُ لقَوْم يَعْلَمُونَ ﴾ الانعام: ١٠٥٠ اليس الأمر كما زعموا أن الرسول عَنْ مَن قَبْل هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَة لِلْمُتُقِينَ ﴾ إمرد: ١٤ الله مَا كُنتَ تَعْلَمُها المَاتِ وَلا قَوْمُكُ مِن قَبْل هَذَا فَاصْبُر إِنَّ الْعَاقِبَة لِلْمُتُقِينَ ﴾ إمرد: ١٤ المناق من قَبْل هَذَا فَاصْبُر إِنَّ الْعَاقِبَة لِلْمُتُقِينَ ﴾ إمرد: ١٤ الله مَا كُنتَ تَعْلَمُها أنتَ وَلا قَوْمُكُ مِن قَبْل هَذَا فَاصْبُر إِنَّ الْعَاقِبَة للْمُتُقِينَ ﴾ إمرد: ١٤ الله مَن قَبْل هَذَا فَاصْبُر إِنَّ الْعَاقِبَة للمُتُقِينَ المَن يُولِي الله مَن الله والمَن المَن عَنْ الله والمَن الله والمَن مَن قَبْل هَذَا فَاصْبُر إِنَّ الْعَاقِبَة للمُتُقِينَ المَن المَن الله والمَن المَن المَن الله والمَن الله والمَن المَن الله والمَن المَن اله والمَن المَن المَن

ولذلك يتحدث القرآن عن قصص الأنبياء، كقصة آدم عليه السلام، وخروجه من الجنة وتوبته، مارًا بالأنبياء حتى محمد عائياتهم .

فعدد الأنبياء لا يحصى، وقد ذكر بعض المفسرين «أن عددهم يبلغ ثمانية آلاف رسول: أربعة آلاف من بني إسرائيل، وأربعة آلاف من سائر الناس أجمعين» (٢).

⁽١) إعجاز القرآن للباقلاني ص٤٦، ٧٢، والتمهيد ص ١٣٠، ١٣١.

⁽٢) تفسير الجلالين ص١١٤.

هذه الأقاصيص التي جاءت في القرآن على لسان محمد عليسيم أدهشت عقول المشركين، وحيرت ألبابهم، ودعتهم أن يزعموا زعمًا أنه كان يدرس التاريخ خفية، ويقرأ الكتب خلسة؛ ولكن البله نفي عنه افتراءهم، وفضح زعمهم، وكشف كـذبهم، وجزم القرآن بأن محـمدًا لم يكن لديه هو ولا قومـه علم بهذه الأنباء : ﴿ وَمَا كُنْتُ تَتُلُو مِنْ قَبُّلُهُ مِنْ كَتَابِ وَلَا تَخْطُهُ بِيمِينَكُ ﴾ [العنكبرت: ١٤٨] .

فورود هذه القصص في القرآن ليس من افتراء محمد عليك الأنه لا ينطق عن الهوى، ولا يخبر بشيء من تلقاء نفسه: ﴿إِنْ هُو إِلاَّ وَحَيْ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤] ، «وهذه الأنباء دليل إعجاز القرآن؛ إذ ليس في وسع بشر أن ينبئ بمثل هذه الأخبار عن الماضي، وربما كان ذلـك لأن الماضي الذي يخبر عنه مـحمــد سابق على كل تسجيل، أو بما يجوز أن تجد له أثرًا في وثيقة "(١).

ورغم ما ذكر من قصص الأنبياء في القرآن، والستأكيد بأن محمدًا النبي الأمي لم يكن له عهد بمثل هذه القصص لا عن طريق الدراسة، ولا عن طريق مخالطة الأحبار اليهود، ولا الرهبان المسيحيين، وأنَّى له أن يعلم ما يعلم من تلك القصص المفحلة، ويحيط بهذه الأنباء الدقيقة، وهو الصادق الأمين في أقواله وأفعاله؟ وأنَّى له أن يعلم ذلك إن لم يكن بوحي من الله وتأييد من لدنه، ورغم ذلك كله لا نستطيع أن نأخذ بهذا الرأي القائل بأن مرجع الإعجاز في القرآن إلى ما فيه من هذه الأخبار والقصص؛ لأن ذكر الأنبياء وقصصهم لم يرد في القرآن وحده؛ بل ورد فسي غير القسرآن من الكتب المقسدسة كالتوراة والإنجيسل وصحف إبراهيم التي لا تتصف بالإعجاز.

000

⁽١) المعقول واللامعقول ص١٤٣، د. زكى نجيب.

الإعجازالعدي

ذكر بعض الباحثين المعاصرين (١) أن التماثل في الأعداد والتكرار في الأرقام هو صورة من صور إعجاز القرآن التي لا يمكن للباحث أو الدارس أو القارئ أن يستعرضها إلا هو يؤمن الإيمان الكامل المطلق أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا بوحي من الله سبحانه وتعالى لآخر أنبيائه وخاتم رسله؛ لأنه شيء فوق القدرة وأبعد من حدود العقل البشري. فهذا الوجه من الإعجاز وجه قاطع، ودليله العدد والحساب، والعدد لا يختلف والحساب لا يخطئ.

فلفظ الدنيا مثلاً قد تكرر في القرآن الكريم قدر ما تكرر لفظ الآخرة.

ولفظ الشياطين قد تكرر في القرآن الكريم قدر ما تكرر لفظ الملائكة.

ولفظ الموت قد تكرر في القرآن الكريم قدر ما تكرر لفظ الحياة.

وهذا التوازن والتناسق العددي في موضوعات القرآن لا يمكن أن يكون مصادفة قدرية أو حادثة عفوية؛ لأنه توازن مقصود، وتناسق غير محدود. وهذه الأعداد المتساوية والأرقام المتماثلة في ألفاظ القرآن التي تم توزيعها في الآيات توزيعًا دقيقًا أعظم من أن تحددها طاقات بشرية، أو أجهزة حاسبة أو عقول إلكترونية.

ويرى الباحث أن التساوي في عدد الألفاظ، أو مما يطلق عليه الإعجاز العددي هو المرتبة الأولى للإعجاز، ثم تأتي الآيات بعد ذلك قمة في البلاغة والبيان وروعة في المرتبة الثانية من وجوه في الصياغة والإتقان: أي أن بلاغة القرآن وفصاحته تأتي في المرتبة الثانية من وجوه الإعجاز بعد الأعجاز العددي الذي وضعه الباحث في المرتبة الأولى.

هذه هي فكرة الإعــجاز العددي كــما تصورها البــاحث، وأراد أن يدلل على صحتها ويؤكــدها من خلال ألفاظ كثيرة ساقهـا، ثم أورد ألفاظاً تقابلها في المعنى

⁽١) الإعجاز العددي للقرآن الكريم - عبد الرازق نوفل ٨-١٨١،١٠٠ . ١٩٢ .

ليجل أن الألفاظ ذكرت بنفس القدر والعدد الذي ذكرت به الألفاظ المتي تحمل المعنى المقابل.

وهذا الوجه أقوى من أي وجه آخر من وجوه الإعجاز؛ لأنه وجه لا تختلف في نتيجته الآراء ولا تتعدد الاتجاهات، فهو ليس بتفسير أو تأويل تتعارض فيه الاجتهادات وتتباين النظريات، ولكنه حساب وأرقام، وحقائق الحساب دائمًا قاطعة، وشواهد الأرقام أبدًا دامغة.

وقد وجد المؤلف أن ما توصل إليه في هذا الشأن لابد أن ينشر وأن يذاع، وأن يعرض على أوسع نطاق، وإلى أبعد حد ليحمل الوجه الجديد للإعجاز القرآني: وهو الإعجاز العددي للقرآن الكريم.

ولعل من الطريف أن نقول: إن فكرة الإعجاز العددي ليست حديثة أو نابعة في عصرنا الذي يهتم بالأرقام والحساب وشئون الاقتصاد، وإنما هي فكرة قديمة ذكرها السيوطي في بعض كتبه، حيث نراه يشير إليها بقوله: «وقال ابن سراقة في وجوه إعجاز القرآن:

ما ذكر الله فيه من أعداد الحساب والجمع والقسمة والضرب، والموافقة والتأليف، والمناسبة والتصنيف والمضاعفة؛ ليعلم بذلك أهل العلم والحساب أنه على عالى عادق في قوله: إن القرآن ليس من عنده، إذ لم يكن ممن خالط الفلاسفة ولا تلقى عن أهل الحساب وأهل الهندسة)(١).

ففكرة الإعجاز المقائمة على الأعداد والحساب إذن كانت معلومة من قديم، وقد طرقت من قبل، إلا أنها لم تطرق بالتفصيل والتأكيد الذي أوضحه لنا مؤلف الإعجاز العددي، فالبذرة وإن كانت سابقة إلا أن المؤلف المعاصر استطاع أن يتعهدها بالعمل والمراجعة حتى أنبتت شجرة عظيمة لها فروع وثمار.

ويجدر بنا أن نذكر بعض الملحوظات على هذا الوجه من الإعـجاز نلتزم فيها الدقة والتحقيق سـواء فيما تشابه من الألفاظ أو فيمـا اختلف، مادامت الحسابات

⁽١) المعترك: ١/ ٢٢ .

والأعداد تلتزم بالدقة والإحصاء، ولا مجال فيهما للتفسير أو التأويل أو الاجتهاد، ﴿ لأَنْ حَقَائِقَ الْحُسَابِ دَائِمًا قَاطَعَةً وَشُواهِدَ الأَرْقَامُ أَبِدًا دَامِغَةً ﴾ .

يقسول المؤلف: «تساوى عدد مرات ورود لفظ الشيطان، وعدد ورود لفظ الملائكة في القرآن الكريم:

> فقد تكرر لفظ الشيطان ٦٨ مرة في مثل النص الشريف: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُو فَاتَّخذُوهُ عَدُوًّا ﴾ إناطر: ٦} .

وتكرر لفظ الملائكة ٦٨ مرة في مثل النص الكريم: ﴿ إِذْ يُوحَى رَبُّكَ إِلَى الْمَلائكَةَ أَنِّي مَعَكُم ﴾ الانفال: ١٦] ١٥) ولفظ الموت ومشتقاته قد تكرر ١٤٥ مرة.

ولفظ الحياة ومشتقاته قد تكرر ١٤٥ مرة.

وكذلك لفظ النفع ورد في القرآن ٥٠ مرة.

ولفظ الفساد ورد في القرآن ٥٠ مرة.

فهـذه المساواة في الأعداد بين الـلفظين دليل على إعجاز الـقرآن، ولنا بعض الملاحظات نشير إليها فيما يلى:

أولاً: أن العرب لم يكونوا من علماء الحساب أو المهستمين بالأرقام والإحصاء، وهم وإن كانوا عربًا يشتغلون بالتـجارة ويهتمون بالربح والحسارة التي تستلزم الحساب ومراجعة الأعداد، والتجارة هي قموام حياتهم والمورد الأهم لرزقهم، واهتمامهم بالربح والخسارة محور تحركاتهم، ولم يكن لهم غناء عنها في معاملاتهم الداخلية أو الخارجية على حد سواء، وقد كان التــاجر يجمع من أفراد المدينة الواحدة ما يكون به قافلة تتبجه إلى الشمال أو الجنوب، التماسًا للشراء والبيع وطلبًا للربح، ولاشك أن المسهمين في هذه القافلة برءوس أموالهم أو بإشرافهم أو بمجهـودهم يفتقرون إلى معرفة نصـيب كل منهم في رأس مال القافلة وأرباحها، وما كان ذلـك ليتيسر إلا بالحساب ومراجـعة الأعداد، سواء أكان ذلك

⁽١) الإعجاز العددي ص ١٧.

بالحفظ والاعتماد على الذاكرة، أم كان بكتابة الأرقام وتدوينها، إلا أن ذلك كان بطريقة ساذجة تحفظ عليهم أموالهم ويعرفون بها ما لهم أو عليهم من ديون، وذلك لا يستلزم البراعة الكبيرة في الحساب، حتى يتحداهم القرآن فيما برعوا فيه من أعداد وحساب، اللهم إلا إذا كانت المعجزة أعجب وأعظم حين نفـترض أنها جاءت لقوم لم يشتهروا بمثل ما جاءت به المعجزة، كأن يكون الإعجاز في القرآن للحساب والأرقام والإحصاء، والعرب لم تتبحر في علوم الرياضة والحساب، أو تشتهر بممارستها حتى يكون ذلك أدعى للعجز والـتسليم، ربما كان الرأي كذلك كما يذهب إليه بعض الباحثين (١) ، ويفضل أن ينفي الصلة بين إعجاز القرآن وفصاحــة العرب، وينعى على الأقدمين الذين يربطون بينهــما، «لأن القرآن يكون أدعى إلى الإعــجاز والاعتـراف بإعجـازه، أن يكون قد بلغ هذا المبلغ مـن القوة والبلاغة في لغة لم يعرف أهلها القراءة ولا الكتابة من قبل، ولم يكن لهم بالتأليف عله، فكان نزوله في هذا الجو على هذا النحو من الكمال معجزة أي معـجزة، أما القـول بأن كل نبي أرسل بمعجزة من نـوع ما تفوق فـيه أهله ليكون ذلك أدعى لتصديقه: فموسى أرسل بالسحر؛ لأن المصريين كانوا مهرة في السحر، وأن عـيسى نزل بمعجزة إحـياء الموتى لتفوق قـومه في الطب، وأن النبي أوتي معجزة القرآن لتـفوق العرب في الفصاحة، فهي نظرية مفـتعلة وبراهينها غير ثابتة؛ بل الثابت أن الطب لم يكن مزدهراً أبدًا في فلسطين في عهد المسيح».

ثانيًا: أن التساوي في الأعداد لم يلحظ في كشير من الألفاظ المتقابلة أو المتماثلة في القرآن، فقد ذكر لفظ الأرض ومشتقاتها ٢٦١مرة، وكلها بلفظ المفرد، ولم يذكر لفظ «أرضون» جمعًا ولا مرة واحدة.

أما لفظ السماء فقد ورد ٢١٠مرة على هذه الصور: ٢٢٠مـرة بلفظ السماء مفردًا، ١٩٠مرة بلفظ السموات جمعًا .

والبون شاسع بين هذه وتلك، سواء من حيث العدد أو من حيث الصورة في الإفراد والجمع .

⁽١) مجلة الأدب، العدد الرابع، السنة الخامسة، يوليو ١٩٦٠م، د. محمد كامل حسين .

ومن الألفاظ المتماثلة نذكر: لفظ موسى، وعيسى، ومحمد عليهم السلام. فقد ورد لفظ موسى ١٣٦ مرة.

ولفظ عيسي ٢٥ مرة.

ولفظ محمد ٥ مرات، منها مرة واحدة بلفظ أحمد.

وموسى وعيسى ومحمد تجمعهم رابطة واحدة؛ هي رابطة النبوة والرسالة، والتماثل بينهم قائم، ولكن التساوي بينهم في عدد الألفاظ المذكورة في القرآن عن كل واحد منهم ليس قائمًا. ونلاحظ مثل ذلك الفرق الكبير بين لفظ النبي والرسول، ولفظ الأنهار والعيون ومشتقاتهما، مما يدل على أن التساوي في بعض الألفاظ التي استشهد بها المؤلف على صحة نظريته، إنما جاءت عفوًا دون قصد أو هدف.

ثَالثًا: يتعــجب المؤلف حين يجد أن سور القرآن وعــددها ١١٤ سورة يطابق العبدد الذي تكرر به لفيظ الرحيم وهو ١١٤مبرة، ولم يوضح لنا العبلاقية بين التساوي في عدد ألـفاظ الرحيم، وعدد سور القرآن أو الغرض منـه، فأسماء الله الحسني عديدة، وكمشير منها لا يطابق عددها عدد سمور القرآن، ولو لاحظ معنى الرحمة في لفظ الرحيم واعتبرها في القرآن، لكان الأجدر أن يعقد الموازنة بين عدد لفظ الرحمة ذاتها، وهي تشمل «رحمتك، ورحمتنا، ورحمـته، ورحمتي، والراحمين، وعددها ١٢٠ مرة عدا ما اشتق منها من أفعال.

فالأعداد التي وردت في القرآن الكريم ليس فيها تماثل، ولا ينبغي أن تكون وجهًا من وجوه الإعجاز.

الإعجازالعلمي بالقرآن

يروى السيوطي عن أبي الفضل المرسي أن القرآن جسمع علوم الأولين والآخرين، بحيث لم يُحِط بها علمًا إلا الله ورسوله، ثم ورث عنه معظم ذلك أعلام الصحابة حتى قال ابن عباس: لو ضاع عقال بعير لوجدته في كتاب الله (١).

ولذلك نهض العلماء على اختلاف مشاربهم وتخصصاتهم يدرسون كتاب الله دراسة متأنية دقيقة، وذهبت كل طائفة تعالج القرآن لتستخرج منه ما يتفق والعلوم التي تبحث فيها والفن الذي تشتغل به.

فالقراء تناولوا القرآن لبيان لغاته ومعرفة مخارج حروفه، وعد كلماته وآياته وسوره. والنحاة تناولوا القرآن من حيث البناء والإعراب في الأسماء والأفعال والحروف «حتى إن بعضهم أعرب القرآن كلمة كلمة» (٢).

والمفسرون تناولوا القرآن من حيث دلالة ألفاظه على معانيه الظاهرة والخفية، واحتمال الألفاظ للمعاني المختلفة، وترجيح بعضها على بعض.

والكُتَّاب والشعراء وعلماء البلاغة نظروا إلى جزالة ألفاظ القرآن وبديع نظمه، وحسن اتساقه، واستخراج ما فيه من معان وبيان وبديع .

والمشتخلون بالعقيدة استخرجوا من القرآن الأدلة العقلية التي تدل على وحدانية الله وتنزيهه عما لا يليق.

وعلماء الفقه دققوا النظر وأحكموا فيه الفكر ليستخرجوا منه الحلال والحرام، والجائز والممتنع، وسائر الأحكام المتعلقة بالمواريث والوصايا وغير ذلك .

والمشتغلون بالعلوم النفسية تناولوا ما في القرآن من آيات لها دلالات نفسية، أو إيحاءات رمزية، واهتموا بصفة خاصة بالآيات التي ورد فيها ذكر الأحلام والرؤى المنامية مثل رؤى يوسف عليه السلام.

⁽١) المعترك: ١/١١، والإتقان: ١٢٦/٢.

وعلماء الطب وجدوا في القـرآن آيات تفيد الصحة بعد السـقم، والشفاء بعد المرض، كقوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِن بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلُوانَهُ فيه شَفَاءَ لَلنَّاسِ ﴾ [النحل: ٦٩] كما وجدوا في بعض آياته فضلاً عن طب الأجساد، طب القلوب وشفاء الصدور.

والملاحظ أن المشتغلين بعلـوم القرآن قد توغلوا في استخـراج العلوم المختلفة من القرآن الكريم توغلاً شديدًا، حتى إنهم لم يتركوا علمًا من العلوم إلا قالوا: إن القرآن قلد تحدث عنه أو أشار إليه إشارة قريبة أو بعيلة، كأنهم بذلك أرادوا تطبيق الآية الكريمة: ﴿ مُما فَرُطْنَا فِي الْكَتَابِ مِن شَيْءِ ﴾ [الأنعام: ٣٨] ، وقوله: ﴿ يَاوَيُلْتَنَا مَا لِهَذَا الْكَتَابِ لَا يُغَادُرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهًا ﴾ الكهف: ٤٩] ، فكل ما يحتاج إليه الناس في أمر دينهم ودنياهم قد ذكره القرآن مفصلاً أو مجملاً.

وبعض العلماء يــؤكدون لنا أن بعض الآيات تحمل إشــارات كونية تشــير إلى إعجاز القرآن من الوجهة العلمية، ويجمل بنا أن نقول له ولغيره من العلماء الأجلاء: إن إقحام العلم في تفسيس آيات القرآن لبيان كـونه معجزًا لا تتـفق وما نعرف عن عقلية العرب وثقافتهم وقت نزول الوحي، فالعرب حين نزل القرآن كانوا قومًا بسطاء يعيشون على الفطرة، ويتصرفون بالسليقة، ويمارسون حياة شاقة في بيشة صحراوية، ويتنقلون على ظهور الإبل من مكان إلى مكان مهما طالت الرحلة وبعدت الشقة، وطبعي أن العرب لم يكونوا علماء يباهون الأمم بنظرياتهم العلمية، ويشغلون أنفسهم بالاكتشافات التي تغير مفهم الناس عن الكون الرحيب وما فسيه من عجائب فلسكية، أو أشكال هندسية أو معلومات زراعيـة، وهم قوم يمضون حياتهم في الخيام ويقضون أوقاتهم في الرعي.

والقرآن ليس كتاب نظريات علمية مفترضة، أو شارحًا لحقائق علمية ثابتة، أو معملاً تجرى فيه التجارب ليتوصل منها إلى نتائج علمية تخالف المتعارف عليه، أو تؤكده، وإنما هو كتاب هداية للبشرية، تسـعد إذا سارت على تعاليمه، وتشقى إذا ضلت عنها، وهو منهج متكامل لحياة الفرد والمجتمع لينطلق في الحدود التي رسمهـا له دون أن يلجأ إلى تفصيلات وجـزئيات علمية، وتجارب مـعملية، وإنما

يدع ذلك للعقل بعد أن يأخذ حظه من التقويم ليعمل على صلاح البشرية وإسعاد

وتطبيق النظريات العلمية على النصوص القرآنية لا يتمشى وسنة التطور، فالنص القرآني ثابت ومتيقن لا مجال للشك فيه، أما العلم فإنه متغير ومحتمل بحكم التطور الذي يطرأ عليه؛ فالنظرية العلمية التي نعتنقها اليوم ونحاول تطبيق النص القرآني عليها باذلين الجهد والمشقة حتى نصل في النهاية إلى الاتفاق الكامل بين النظرية العلميــة المعروفة التي بين أيدينا الآن وبين الــنص القرآني، هذه النظرية الثابتة اليوم قد يثبت خطؤها غدًا، وتنتقض بنظرية أخرى تخالفها، ومن يدرينا أن هذه النظرية الأخرى قــد يطرأ عليها ما يغــيرها هي أيضًا ويجعلهــا نظرية بالية لا قيمة لها علميًا، ولذلك ينبغي أن نتهيب كثيرًا قبل أن نتورط في إقحام العلم على النصوص القرآنية.

نعم، قد يشير القرآن إلى بعض الحقائق الكونية إشارة مجملة لا تفصيل فيها، ومن الواجب أن نتفهمها ونأخذ بها؛ لأننا نستيقن من صحتمها بمجرد ذكر القرآن لها، والقرآن كـتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومـادام القرآن قد ذكرها مجملة، فكل تفصيل في الظواهر الكونية من خلال النص القرآني قد يجعل القرآن نفسه عرضة للتخيير والتبديل، فالشيء إذا ذكر مجملاً في القرآن أخذنا به كـما هو؛ لأنه صادق. أما ذكـر التفصيـلات وحشد الجزئيات والـتماس العلل والأسباب فهي غير صحيحة دائمًا، وغير مسلم بها أبدًا، وإنما تحتمل الخطأ والصواب، ومن المجازفة أن نأخذ بالصواب في شيء ونسعى إلى تطبيقه على النص القرآني، ثم يأتي إلينا العلم نفسه في المستقبل بما ينقض ما سبق لنا الأخذ به، والتثبت من صدقه، واعتباره صوابًا، ليؤكد لنا فيـما بعد أنه كان خطأ، ومن ثم لا ينبغي أن نجري بالنص القرآني وراء أية نظرية علميـة، وإنما نتقبلها فقط حين لا تخالف الحقائق المجملة التي ذكرها القرآن وقررها.

وإذا كنا لا نجد تناقضًا بين الآيات الكونية المذكورة في القرآن وبين ما يكتشفه العلم في حاضره أو مستقبله، فليس هذا دليلاً على إعـجازه، وإنما هو دليل فقط

على أنه منزل من قبل الله سبحانه، و«ليس كل من نزل من السماء معجزًا، فالتوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية جاءت من قبل الله، ولم توصف بالإعجاز كما وصف القرآن، ولم يقع بها التحدي كما وقع في القرآن»(١) .

ونضيف إلى ذلك أيضًا أن الآيات الكونية لا تشمل سور القرآن كلها، وهي تبلغ ١١٤ سسورة، ولا آياته كلها، وهسي تبلغ ٦٣٣٦ آية على أرجح الأراء، وإنما تقع فـقط في بعض السور دون بعـضهـا الآخر، وفي بعض الآيات دون البـعض الأخر، وهي تبلغ ثمانمائة آية كونية كما يقول المؤلف (٢٠) ، وهو عدد قليل إذا قيس بعدد الأيات القرآنية. ومعلوم أن التحدي قد وقع بأية سورة من سور القرآن، فكل سورة من سـوره فيها إعـجاز لا يبلغه أحـد ولن يصل إليه أحد، فلو كـان القرآن معجزًا بسبب الإشارات العلمية المتفرقة في ثنايا بعض آياته لكان كثمير من سور القرآن التي تخلو من مثل هذه الإشارات بعيدة عن الإعجاز، ولم يقل ذلك أحد حتى العلماء أنفسهم الذين نادوا بالإعجاز العلمي للقرآن.

وبعد فقد ذكرنا من قبل بعض وجوه الإعجاز التي رأى العلماء فيها سببًا كافيًا لإعجاز القرآن، فمنها ما كان بالصرفة، ومنها ما كان من ذكر سيَر الأولين، ومنها ما فيه من تنبؤ بأحداث المستقبل، ومنها ما يرجع إلى التماثل العددي والتناسب في الموضوعات المتناقضة أو المتماثلة، ومنها ما فيه من إشارات تدل على حقائق علمية أثبت العلم صبحتها في العصور الحديثة، وغيسر ذلك من وجوه الإعـجاز التي ذكرناها والتي لم نذكرها.

000

⁽١) إعجاز القرآن ص٧٤، التمهيد ص١٢٧، المعترك: ١/ ١٠، الإتقان: ٢/ ١٢٤.

⁽٢) الإعجاز العلمي ص٨.

نظمالقرآن

أما الآن فنتحدث عن وجه آخر يعتبر من أهم وجوه الإعجاز في القرآن إن لم يكن أهمها على الإطلاق، وبه أخذ كثير من العلماء، ونعني بهذا الوجه نظم القرآن ووصفه بالبلاغة.

"فالقرآن إنما صار معجزًا؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنًا أصح المعاني... واشتمل على عمود السبلاغة في وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدّل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون منه سقوط السلاغة (۱)، فقد جاء القرآن في نظمه البديع، وتأليفه العجيب متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعجز عنه البشر.

والباقلاني (ت٣٠٥هـ) يرد إعـجاز القـرآن إلى النظم، ويسـوق لذلك أسبـابًا عدة (٢٥) ، وقبل أن نذكر هذه الأسباب يجـمل بنا أن نورد معنى النظم عند الباقلاني كمـا يفسره لنا حين يقول: «وليس الإعـجاز في نفس الحروف، وإنما هو في نظمـها وإحكام رصفـها، وكونها على وزن مـا أتى به النبي عليه النبي عليه وليس نظمها أكـثر من وجودها متقدمة ومتأخرة، ووجود بعضها قبل ووجود بعضها بعد بعض».

والأسباب التي ذكرها الباقلاني تتلخص في:

۱- إن النظم يباين المألوف من كلام العرب، ويتميز عن أساليبهم المعتادة رغم تعدد مذاهبه وتصرف وجوهه، فالقرآن ليس سجعًا، وليس شعرًا، وليس خطابة، وليس جاريًا مجرى الرسائل.

⁽١) بيان إعبجاز القرآن للخطابي ص٢٤-٢٦، وانظر: أثر البلاغة في تفسير الكشاف، د. عمر الملاجويش ص٩٢، ط. بغداد .

⁽٢) التمهيد ص٥٦٥، ١٢٦، إعجاز القرآن ص٥٥-٤٧.

٢- إن العرب رغم فصاحتهم لم يشتمل كلامهم على القدر الوافي من الفصاحة والإبداع، سواء في المعاني أو الفوائد أو الحكم التي اشتـمل عليها القرآن بهذا الطول وعلى هذا القدر، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة ربما وقع فيها الاختلال واعترضها الاختلاف وشملها التكلف، والقرآن رغم طوله وكثرة سوره وآياته متناسب لم يطرأ عليـه الاختلال أو الاختلاف، أو التكلف، ﴿ وَلُو كَانَ مِنْ عَنْدَ غَيْرِ اللَّهِ لُوجَدُوا فَيْهُ اخْتَلَافًا كُثْيِرًا ﴾ إلنساء: ٨٢ .

فالله يخبرنا أن كـــلام البشر يقع فيه الاختلال، ويطرأ عليه الـــتفاوت إن امتد وطال، ولكن القـرآن بما يتـضمنه من القـصص والمواعظ، والإعـذار، والإنذار، والوعد والوعيد، والتبشير والتخويف، والسير المأثورة، وتعليم الأخلاق الكريمة والشيم الرفيعة، لا نجد فيه تفاوتًا أو اخــتلافًا، وإنما جاء كله على درجة رفيعة من البلاغـة والفصاحة، والجـمال والإبداع، وعلى حد واحـد من حسن النظم وبديع الرصف، أما إذا نظرت إلى كلام البليغ السكامل، أو الشاعر المفلق، أو الخطيب المصقع رأيت التباين، ولحظت الاختلاف: فالشاعر يتفاوت شعره بحسب الأحوال، فهو بارع في معنى معين، ومـقصر في معنى آخر، ومنهم من يجود في غـرض ويضعف في غـيره، ولكل شـاعـر نصيب من الإجـادة في فن دون فن، ولذلك ضرب المثل بامرئ القـيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب، وكـذلك ترى الاختلاف في الخطب والرسـائل وسائر أجناس

٣- إن نظم القرآن لم يخرج عن عادة كلام الإنس وحدهم، وإنما خرج أيضًا عن عادة كلام الجن، فالعرب تعتقل في مخاطبة الجن، وروت لهم شعرًا وحكت لهم كلامًا والله حكى عن الجن ما تفاوضوا فيه من القرآن فقال: ﴿وإِذْ صوفنا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضي وَلُوا إِلَىٰ قُومهم مُنذرين ﴾ الأحقاف: ٢٩] ، والقدر الذي نقله الناس من ذلك تأمله النقاد فلم يجدوا فيه فصاحة تفوق فـصاحة كلام الإنس، بل لعله يقصـر عنها، فالجن إذن تقصر عن الإتيان بمثل القرآن كما يقصر البشر عن الإتيان بمثله، وقال عز وجل: إن القرآن اختار ألفاظه ليعبر عن معاني مبتكرة في وضع الشريعة والأحكام والاحتجاج في أصل الدين والرد على الملحدين، ومعلوم أن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعاني مبتكرة وأسباب مستحدثة، ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعاني، والمعاني وفق الألفاظ في انسجام تام وتأليف دقيق كانت البراعة أظهر والفصاحة أتم.

0- إن صناديد العرب وأعيانهم ووجوههم وفصحاءهم سلموا بتقدم القرآن في الفصاحة والبلاغة، وأظهروا العجز عن معارضته، ووصفوه بالحلاوة والطلاوة، وأنه يعلو كلام البشر ولا يعلى عليه، وأما قوله تعالى حكاية عن بعضهم: ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ الانفال: ٣١} ، فهو قول أهل الضعف من صنعة البلاغة دون المتقدمين فيها، أو أنهم كاذبون فيما أخبروا عن أنفسهم، إذ لو كانوا صادقين وقادرين على المعارضة لما اقتصروا على الدعوى أو اكتفوا بالكلام عن المماثلة.

7- إن ألفاظ القرآن بريئة من التعقيد والثقل، خفيفة على الألسنة، خارجة عن الوحشي المستكره والغريب المستنكر، ولذلك فهو قريب إلى الأفهام، تسرع ألفاظه إلى القلب وتسبق عبارته إلى النفس، وهو مع ذلك عسير المتناول ممتنع المطلب، غير مطمع يُقدر عليه أو يظفر به، أما الانحطاط عن هذه الرتبة إلى رتبة الكلام المبتذل، فليس يصح أن تقع فيه فصاحة أو بلاغة أو يوضع فيه الإعجاز. اه.

ولنا أن نقول: إن موضع الإعجاز في نظم القرآن لا يعود إلى ألفاظه منفردة؛ لأن العرب كانوا يأتون بهذه الكلمات صغيرهم وكبيرهم، فصيحهم وعييهم على حد سواء، وقيمة الكلمة ليست ذاتية، وإنما تخلع عليها من الكلمات مجتمعة، ولا إلى معانيه فقط؛ لأن المعاني لا وجود لها إلا بالتعبير عنها بالألفاظ، ولا إلى إعراب الكلمات؛ لأن العرب قادرون على الإتيان بعبارات خالية من اللحن



والخطأ، والإعـراب لا دخل له في الفـضل والمزية، وليس هو سـبب الفـصاحـة والبلاغة، وإن كان أساسًا في نظم الكلام.

والنظم كما ذكر عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) ليس في الألفاظ، ولا في المعاني، ولا في حركات الإعراب، بل في اتحاد أجزاء الكلام ودخول بعضها في بعض، وارتباط الثاني بالأول، كما يتنضح في الوحدة الشاملة بين أجزاء الجملة، وبين الجـملة والجملة في مـجمـوعة من العـلاقات المنظمـة المتناسقـة بين أطراف الكلام، وبعبارة أكثر إيجازًا : النظم عند عبد القاهر هو(١) : الأسلوب كما نسميه الآن، أو كما يحلو لعبد القادر أن يسميه: توخى معانى النحو.

وابن عطية (ت٤١٦هـ) يؤكد أن إعجاز القرآن كان بسبب نظمه، وقد أخذ به الجمهور وأهل الفن في صنعة البلاغة فيقول: «وهذا هو القول الذي عليه الجمهور والحذاق وهو الصحيح في نفسه، والتحدي إنما وقع بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه.

ووجه إعـجازه. . . ترتيب ألفاظ القرآن بحيث تكون اللفظة تصلح أن تلى الأولى، وتبيين المعنى بعد المعنى، وهكذا من أول القرآن إلى آخــره، فبهــذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة (٢).

والعلوي (ت٤٩٩هـ) ينقل عن العلماء أقوالهم في وجوه إعلجاز القرآن، ويختار من بينها الفصاحة والبلاغة وجودة النظم «والـذي نختاره من ذلك ما رآه الجهابذة من أهل هذه الصناعة، فإنهم عولُوا على خيواص ثلاث هي الوجه في الإعجاز، وهذه الخواص هي: الفصاحة في ألفاظه، والبلاغة في معانيه، وجودة النظم، وحسن السياق، فإنك ترى القرآن منظومًا على أتم نظام وأحسنه وأكمله» (٣).

أما الأستاذ فريد وجدى (٤) فقد سلك طريقًا آخر غير فصاحة القرآن ونظمه.

⁽١) انظر: أثر النّحاة في البحث البلاغي للمؤلف ص ٣٦٨-٣٧٣ نهضة مصر.

⁽٢) ابن عطية : ١/ ٧١ . (٣) الطراز: ٣/ ٤٠٤ .

⁽٤) دائرة معارف القرن العشرين، مادة قرأ. المجلد ٧.

وغيـر الصرفة التي ذهب إليـها بعض العلماء مـثل النظام (ت٢٢٤هـ)، وابن سنان الخفاجي (ت٢٦٦هـ).

فالقرآن روح من أمـر الله، وله عندنا روحانية خاصة هي عندنا جـهة إعجازه، والسبب الأكبر في انقطاع الإنس والجن عن محاكاة أقصر سورة منه. . هذه الروحانية العالية هي التي قلبت شكـل العالم، ووطأت للعرب عروش الأكاسرة والقـياصرة في مدة وجيـزة، فالله ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عَبَادِه﴾ إغانر: ١٥] ، ولا مشاحـة في أن القرآن فصيح قـد أخرس بفصاحتـه فرسان البلاغـة وملوك البيان، وهو حكيم، وهو حق، وله صفات جليلة تؤثر على العقل والشعور والعواطف والميول، فتتـحكم فيها تحكم المُلك في ملكه. . وله فوق بلاغته وعـذوبته وحكمته وبيانه روحانية يـدركهـا من لا حَظّ له في فـهم الكلام وإدراك البـلاغـة. هذه الروحانية تظهر للعارف باللغة والجاهل بها، وظهـورها للجاهل بـها من الأمم الأعجمية بتأثيرها ونتيجتها.

والله وصف كتابه بأوصاف عديدة بأنه بيان وهدى وموعظة، وأنه بينات ورحمة، مما يشير بـأن وجه إعجاز القرآن في وجه غير البلاغـة العظيمة، حتى إن الرجل العامي والـصبي الجاهل يعـتريهمـا تهيّب عند تلاوة القـرآن.. ولو كانت تلاوته بصوت غير حسن.

بِينَمُ النَّا إِنْ الْجَازِيْ

قال الشيخ عبد القاهر بن عبد الرحمن ضُائية: الحمدُ لله ربِّ العالمين حَمْدَ الشاكرين، وصلواتُه على النبيِّ محمد وآله أجمعين.

جمل من القول في إعجاز القرآن

١- اعلم أن لكل نوع من المعنى نوعًا من اللفظ هو به أخص وأولى، وضروبًا من العبارة هو بتأديت أقوم، وهو فيه أجلى، ومأخذًا إذا أُخذ منه كان إلى الفهم أقرب، وبالقبول أخْلق، وكان السمع له أوْعَى، والنفس إليه أميل. وإذا كان الشيء متعلقًا بغيره، ومقيسًا على ما سواه (١)، كان من خير ما يُسْتَعَان به على تقريبه من الأفهام، وتقريره في النفوس، أنْ يوضع له مثالٌ يكشف عن وَجْهِهِ ويُؤْنَس به (١)، ويكون زمَامًا عليه يُمْسكه على المُتَفَهّم له والطالب علمه.

٧- وهذه جُمل من القول في بيان عَجْنز العرب حين تُحُدُّوا إلى معارضة القرآن، وإذعانهم وعلمهم أنَّ الذي سمعوه فائتٌ للقوى البشرية، ومُتجاوزٌ للذي يتسع له ذَرْعُ المخلوقين (٣)، وبما يَتصل بذلك ممّا له اختصاص بعلم أحوال الشعراء والبلغاء ومراتبهم، وبعلم الأدب جُملة قد تحريّت فيها الإيضاح والتبيين، وحَذَوْتَ الكلام حذواً (٤) هو بعرف علماء العربية أشبه، وفي طريقهم أذهب، وإلى الأفهام جُملةً أقربُ. وأسأل الله التوفيق للصواب والعون عليه، والإرشاد إلى كل ما يُثلف لديه (٥)، إنه على ما يَشاءُ قديرٌ.

000

⁽١) مقيساً على ما سواه: قدره على مثاله.

⁽٣) ذرع المخلوقين: طاقتهم.

⁽٥) يزلف لديه: يقرب إليه.

⁽٢) يؤنس به: يزيل وحشته.

⁽٤) حذوت الكلام: قطعته .

بِنِيْ الْبِيَالِحِيْنِ الْجِيْنِ

يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني ضافيه:

١- كل معنى من المعاني يعبر عنه بلفظ خاص به حتى يؤديه كما هو، أو يعبر عنه بعبارة توضحه وتجلّيه، فيكون أقرب إلى الفهم وأجدر بالقبول، وخير ما يُستعان به على تقريب المعنى إلى الأفهام، أن يُوضَع له مثال يكشف عنه ويُؤتنس به.

000

٧- يورد عبد القاهر مجموعة من الأقوال تبين عجز العرب حين تحداهم الرسول على الله القرآن خارج عن طوق البشر، كما ذكر أحوال الشعراء ومراتبهم، والبلغاء وتفاوتهم، ونحا في إيضاحه وبيانه إلى معارف عليه علماء العربية من بلاغة القول وحسن العبارة، ويسأل الله التوفيق والسداد في هذه المهمة.

٣- معلومٌ أن سَبيلَ الكلام سبيلُ ما يدخله التفاضُل، وأن للتفاضُل فيه غايات ينأى بعنضها عن بعض ومنازل يَعلُو بعضها بعضًا، وأن علم ذلك علم يُخص أهله، وأن الأصل والقُدوة فيه العرب، ومن عداهم تُبَعُّ لـهم، وقاصرٌ فيه عنهم، وأنَّهُ لا يجوزُ أن يدَّعَى للمتأخرين من الخطباء والبلغاء عن زمان النبي عَلِيْ الذي نَزَل فيه الوحي، وكان فسيه التّحدي، أنهم زادوا على أولئك الأولين، أو كُملُوا في علم البلاغة أو تعاطيها لما لم يَكْمَلُوا له، كيف؟ ونحن نراهم يُخْمَلُون عنهم أَنْفُسُهُم (١) ، ويبرأون من دُعوى المداناة معهم، فضلاً عن الزيادة عليهم.

هذا خالد بن صفوان يقول: «كيف نجاريهم وإنما نحكيهم؟ أم كيف

نسابقهم، وإنما نجري على ما سبق إلينا من أعراقهم؟ ١٠(٢)

ونرى الجاحظ (٣) بَدَعي للعرب الفضل على الأمم كُلُّها في الخطابة والبلاغة، ويناظر في ذلك الشعوبية (٤)، ويُجَهِّلهم ويُسَفِّه أحلامهم في إنكارهم ذلك، ويقضي عليهم بالشَّقوة وبالتَّهالك في العصبية، ويُطيل ويُطنب وله ، ثم يقول :

«ونحن أبقاك الله إذا ادّعَينا للعرب الفضل على الأمم كلّها في أصناف البلاغة، من القصيد والأرْجَاز (٢)، ومن المنثور والأسْجَاع (٧)، ومن المُزْدُوَّج (٨) وما لا يَزْدَوج، فَمَعَنا - على أن ذلك لهم - شاهد صادق، من الديباجة (٩) الكريمة، والرُّونقُ العجيب، والسُّبكُ (١٠) والنَّحْت الذي لا يستطيع أشعرُ الـنَّاس اليومُ ولا أَرْفُعُهم في البيان أن يقول مثل ذلك، إلا في اليسير والشيء القليل». انتهى كلامه. والأمر في ذلك أظهر من أن يخفَى، أو أن ينكره إلا جاهل أو معاند .

٤ - وإذا ثبت أنهم الأصل والقُدوة، فإن علمهم العلم، فبنا أن نَنظر في دلائل أحوالهم وأقنوالهم حين تلي عليهم القرآن وتُحَدُّوا إليه، ومُلئت مسامعه من المطالبة بأن يأتوا بمثله، ومن التّقريع بالعجز عنه، وبَتِّ الحكم بأنهم لا يستطيعونه ولا يقدرون عليه .

وإذا نظرنا وجدناهم تفصح بأنهم لم يشكوا في عَبجرهم عن معارضته والإتيان بمثله، ولم تُحَدِّثهم أنْفُسُهم بأن لَهُم إلى ذلك سبيلاً على وجه من الوجوه.

(٢) من أعراقهم: أصولهم. (١) يخملون عن أنفسهم: يخفضونها .

(٣) الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن يحر (ت٥٥٥هـ).

(٤) الشعوبية: نزعة تحاول الحط من شأن العرب. (a) يطيل ويطنب: يزيد في الكلام ويكثر.

(٦) الأرجاز: جمع أرجوزة، وهو ضرب من الشعر متتابع الصوت واللحن.

(٨) المزدوج: شبه بعضه بعضاً في السجع أو الوزن. (٧) كلام مقفى غير الموزون. (١٠) سبك الشيء: انصهاره وإفراغه في قالب.

(٩) الديباجة الكريمة: الأسلوب الحسن.

٣- للكلام منازل يعلو بعضها بعضًا ويتفاضل بعضه على بعض، والأصل في
 حسن القول وجمال العبارة للعرب، ومن عداهم تبع لهم.

ولا يجوز للمتأخرين عن زمن النبي عليه أن يقولوا: إنهم زادوا على الخطباء والبلغاء في زمن النبي شيئًا؛ بل نراهم يضعون من أنفسهم ويعلون من شأن الأولين، فهم يحاكونهم ويحاولون السير على منوالهم.

والجاحظ يدعي للعرب الفضل على الناس قاطبة في البلاغة والخطابة، ويناظر في ذلك غير العرب ويجهلهم ويسف أحلامهم في إنكارهم فضل العرب، والأمر في ذلك غير العرب على أحد، ولا ينكره إلا جاهل أو معاند.

000

٤- وإذا ثبت أن الأصل والقدوة في البلاغة هم العرب، فينبغي علينا أن ننظر في أقـوالهم وأحوالهم حين تحداهم الرسول عرب أن يأتوا بمثل القـرآن، وتلى عليهم التحدي المرة تلو المرة، واعترفوا بعجزهم عن معارضته والإتيان بمثله في كل مرة، ولم تكن لديهم بارقة أمل في معارضة القرآن بأي وجه من الوجوه.

(دلائل أحوال العرب وأقوالهم)

و- أمًّا «الأحوال» فدلَّت من حيثُ كان المتعارَفُ من عادات الناس التي لا تختلف، وطَباتُعهم التي لا تَتَبَدَّل، أنْ لا يسلَّموا لخصومهم الفضيلة وهم يجدون سبيلاً إلى دفعها، ولا يَنْتَحلون العجز (١) وهم يستطيعون قهرهم والظهور عليهم، كيف؟ وإن الشَّاعرَ أو الخطيبَ أو الكاتب يبلغه أنَّ باقصى الإقليم الذي هو فيه من يبأى بنفسه (٢)، ويُدلُّ (٣)، بشعر يقوله، أو خُطبة يقوم بها، أو رسالة يعملها، فيَدْخُله من الأَنفَة (٤) والحَميَّة ما يدعوه إلى معارضته، وإلى أنْ يُظهر ما عنده من الفضل، ويبذُل ما لديه من المنَّة (٥)، حتى إنه ليتوصَّل إلى أن يكتُب إليه، وأن يعرض كلامه عليه، ببعض العلَل وبنوع من التَّمَحُّل هذا، وهو لم ير ذلك الإنسان قطُّ، ولم يكن عليه ما يَهزُّ ويُعرَّكُ ويهيجُ على تلك المعارضة، ويدعُو إلى ذلك التَّعَرُّض.

وإن كان الْمُدَّعي ذلك بمرأى منه ومَسْمَع، كان ذلك أدعى له إلى مُباراته، وإلى إظهار ما عنده، وإلى أن يعرف الناسُ أنَّه لا يُقَصِّر عنه، أو أنَّه منه أفضلُ.

فإنْ انضاف إلى ذلك أن يَدْعُوه آلرجل إلى مُمَاتَنَته (٢) ، ويُحَرِّكه لَقاوَلته (٧) ، فلا الذي يُسهر ليلَهُ ويَسلُبُه القرار ، حتى يَستفرغ مَجهوده في جَوابه ، ويبلغ أقصى الحَدَّ في مُناقضته .

وقد عرفت قصَّة جرير والفرزدق (^) ، وكُلِّ شاعرين جمعَهما عصر "، ثم عرض بينهما ما يَهَيج على المقاولة، ويدعُو إلى المفاخرة والمنافرة (١٠) ، كيف جَدَّ كل واحد منهما في مغالبة الآخر، وكيف جعل ذلك هَمَّه وَوُكُدَه (١٠) ، وقَصَر عليه دهره؟ هذا، وليس به، ولا يَخْشَى إلا أن يُقضَى لصاحبه بأنه أشعرُ منه، وأنّ خاطَره أحدً ، وقوافية أشرد (١١) ، لا يُنازعه مُلكًا، ولا يفتات عليه (١٢) بعَلَبتِه له حَقًا، ولا يُلزمه به إتَاوة (١٣) ، ولا يضرب عليه ضريبة؟

⁽١) لا ينتحلون العجز: لا يدعونه.

⁽٤) أنف: استكبر، أي ادعى التكبر والشموخ.

⁽٦) مماتنته: ليظهر أبهما أمتن وأقوى في حجته .

⁽٨) جرير والفرزدق: شاعران في العصر الأموي.

⁽۱۰) و کده: هدفه وقصده.

⁽١٢) افتات عليه: انكسر أمامه.

⁽۲) يېأى بنفسه: يفخر. (۳) يدل بشعره: يباهي به .

⁽٥) المنة: القوة.

⁽٧) مقاولته: مفاوضته في القول أيًّا كان .

⁽٩) المنافرة: المخاصمة.

⁽١١) قوافيه أشرد: أكثر انتشاراً.

⁽١٣) إتاوة: جزية.

٥- فمن عادة الناس التي جبلوا عليها ألاًّ يسلموا بالعبجز وهم قادرون على دفعه، فالشاعر أو الخطيب أو الكاتب إذا بلغه من بعيد أن هناك من يفخر بشعره أو خطبته أو برسالة كتبها دخلت الحمية نفسه واشتد لمعارضته .

أما إذا كان المدعي بمرأى منه ومسمع كان ذلك أدعى إلى معارضته، وأنه لا يقصر عنه؛ بل يفوقه موهبة وأداء.

وإذا أضيف إلى ذلك أن صاحب الرسالة يدعوه إلى المعارضة ويحرك للمقاولة، كان ذلك بمشابة الدفعة له أن يبلغ أقصى ما عنده؛ ليصمد أمام الدعوة ويعمل على مناقضته والتغلب عليه .

وهذا ما حدث بين كل اثنين جمعهما عصر واحد، حدث بين جرير والفرزدق، وأبى تمام والبحتري، والمتنبى وأبى فراس، حيث جـد كل واحد في التغلب على الآخر، وأخشى ما يخشى الشاعر أن يحكم لخصمه أنه تغلب عليه، وأن شعره أجود أو خاطره أحد.

7- وإذا كان هذا واجبًا بين نَفْسين لا يَرُومُ (۱) أحدُهما من مباهاة صاحبه إلا ما يَجْرِي على الألسُن من ذكْره بالفَضْل فقط، فكيف يجوز أن يظهر في صميم العرب، وفي مثل قُريش ذوي الأنفس الأبيّة والهمم العليَّة، والأنفة والحميّة مَنْ يَدَّعِي النبوّة، ويخبر أنه مبعوث من الله تعالى إلى الخلق كَافَّة، وأنه بشير بالجنة ونذير بالنّار، وأنه قَدْ نَسَخ به كل شريعة تقدَّمته، ودين دان به الناس شرقًا وغربًا، وأنه خاتَم النبييِّن، وأنه لا نَبِي بعده، إلى سائر ما صدع به عليه الناس شرقًا وغربًا، هو وحبي أن الله تعالى قد أنزل علي كتابًا عربيًا مبينًا تعرفون الفاظه، وتفهمون معانيه، إلا أنّكُم لا تقدرون على أن تأتوا بمثله، ولا بعشر سُور منه، ولا بسُورة واحدة، ولو جَهدتم جَهدكم، واجتمع معكم الجن والإنسُ»، ثم لا تدعوهم واحدة، ولو جَهدتم جَهدكم، واجتمع معكم الجن والإنسُ»، ثم لا تدعوهم نفوسُهم إلى أنْ يعارضوه، ويُبينُوا سَرفَهُ (۱۳ في دعواه، مع إمكان ذلك، ومع أنهم لم يسمعوا إلا ما عندهم مثلُه أو قريبٌ منه؟

هذا، وقد بلغ بهم الغَيْظُ من مقالته، ومن الذي ادَّعاه، حَدَّا تركوا معه أَحْلامَهم الرَّاجحة، وخرجُوا له عن طاعة عُقولهم الفاضلة، حتى واجهوه بكُلِّ قبيح ولَقُوه بكل أذَى ومكروه، ووقَفُوا له بكل طريق، وكادُوه وكُلَّ من تَبِعَه بضروب المكايدة، وأرادوهم بأنوًاع الشَّر.

وهل سُمِعَ قَطُّ بذي عقل ومُسكة (٤) استطاع أنْ يُخْرِس خصمًا له قد اشتط (٥) في دعواه بكلمة يُجيبه بها، فتَرَكَ ذلك إلى أُمُور يُسفَّه فيها، ويُنْسَب معها إلى ضيق الذَّرْع (٦) والعَجْز، وإلى أنَّه مغلوب قد أَعُوزَته (٣) الحيلة، وعَسُرَ عليه المخلص؟ (٨)

أم هَلْ عُرف في مَجْرى العادات، وفي دَواعي النفوس ومَبْنَى الطبائع، أَنْ يَدَعَ الرجلُ ذو اللَّبِ (٩) حُجَّته على خصمه، فلا يَذْكُرها، ولا يُفصح بها، ولا يُجلِّي عن وجهها، ولا يُريه الغلط فيما قال، والكذب فيما ادَّعَى، لا، ولا يَدَّعِي أَنْ ذلك

 ⁽۱) يروم: يود .

 ⁽٣) يبينوا سرفه: إسرافه .
(٤) مسكة: ما يتمسك به ويحرص عليه .

⁽٥) اشتط: أمعن وجاوز الحد . (٦) ضيق الذرع: ضعف القدرة .

⁽٧) أعوزته الحيلة: افتقدها . (٨) وعسر عليه المخلص: صعب عليه التخلص.

⁽٩) ذو اللب: ذو العقل.

٦- وإذا كان هذا حادثًا بين شخصين لا يود أحدهما من معارضة الآخر سوى أن يحكم له بالفـضل، فكيف إذا كان هذا الأمـر في قريش ذوي الأنفـة والحمـية وظهر بينهم من يدعي النبوة، ويخبر أنه مبعوث من الـله للخلق كافة إنس وجن مبشرًا بالجنة ومنذرًا بالنار، وأنه خاتم النبيين، وقــد نزل عليه كتاب تعرفون ألفاظه وتدركون معانيـه، وتعجزون عن مجاراته أو الإتيان بمثل أقــصر سورة منه، ثم لا تدعوهم أنفسهم إلى معارضته وبيان إسرافه في دعواه .

وقد بلغ بهم الغيظ مبلغًا شديدًا حتى لقوه بكل أذى ومكروه، وهل سمع قط أن صاحب عـقل استطاع أن يباري خصـمه، فترك مـباراته وأظهر العجـز وضيق الجهد، وأنه مغلوب لم يبق أمامه سوى الخضوع والتسليم؟

عنده، وأنَّه مستطيع له، بَلْ يَجْعَلُ أوَّل جَوابِه له ومعارضته إيَّاه، التَّسَرُّعَ إليه والسَّفَه (١) ، والإقدام على قَطع رَحمه، وعلى الإفراط في أذاه؟

أم هل يجوز أنْ يخرج خارج من الناس على قوم لهم رياسة، ولهم دين ويُحلّه الله من ديارهم وأموالهم، ويُحلّه الله من ديارهم وأموالهم، وفي قَتْل صَناديدهم الله وكبارهم، وسبي (٥) ذراريهم وأولادهم، وعمدته التي يجد بها السبيل إلى تألّف من يتالّفه، ودُعاء من يدعوه، دَعْوَى لَهُ، إذا هي أبطلت بطل أمره كُلّه، وانتقض عليه تدبيره، ثُم لا يُعْرض له في تلك الدَّعْوَى، ولا يُشتَعَل بإبطالها، مع إمكان ذلك، ومع أنّه ليس بمتعذّر ولا ممتنع؟

وهل مَثْلُ هذا إلا مَثْلُ رَجُل عَرض له خَصَمُ من حيث لم يَحْتَسبه (١) ، فادَّعَى عليه دعوى إنْ هي سمَعَت كان منها على خَطَر في ماله ونفسه، فأحضر بينة (٢) على دعواه تلك، وعند هذا المدَّعَى عليه ما يُبطل تلك البينة أو يعارضها، وما يَحُول على الجُملة بينه وبين تَنْفِيدْ دَعْواه (٨) ، فيدع إظهار ذلك والاحتجاج به، ويُضرب عنه جُملة (١) بينه وبين تَنْفِيدْ من إحكام أمره وإتمامه، ثم يصير الحال بينه ما إلى المحاربة، وإلى الإخطار بالمهج (١) والنَّفُوس، فيُطاولُه الحرب، ويُقْتَل فيها أولاده وأعزته، وتُنْهك عشيرته، وتُغْنَم أمواله، ولا يقع له في أثناء تلك الحال أن يرجع إلى القاضي الذي عضي لحصمه بديا (١١) ولا إلى القوم الذين سَمعُوا منه وتصوره بصورة المحق فيقول: قضى لحصمه بديا (١١) ولا إلى القوم الذين سَمعُوا منه وتصوره وعلى كذب شهوده، القد كانت عندي - حين ادَّعَى ما ادَّعَى - بينة على فساد دعواه وعلى كذب شهوده، قد تركتها تَهَاونًا بأمره، أو أنسيتها، أو مَنَع مانع دون عَرضها، وها هي هذه قد جنتكم بها، فانظروا فيها لتعلموا أنكم قد غُررتم؟ (١٦). ومعلوم بالضرورة أن هذا الرجل لو بها، فانظروا فيها لتعلموا أنكم قد غُررتم؟ (١٦). ومعلوم بالضرورة أنه هذا الرجل لو كان من المجانين، لما صح أن يفعل ذلك، فكيف بقوم هم أرجع أهل زمانهم عقولاً، وأكمنهم معرفة، وأجزلهم رأيًا، وأنقبهم (١٢) بصيرة؟ فهذه دلالة «الأحوال».

⁽٢) نحلة: مذهب وعقيدة.

⁽١) سفه الرجل: خف وطاش وجهل.

⁽٤) صناديدهم: رؤساؤهم وزعماؤهم.

⁽٣) يؤلب عليهم الناس: يحرضهم عليه ويغريهم به .

⁽٥) سبي ذراريهم: أسر أولادهم ومن خروج من أصلابهم . (٦) لم يحتسبه: لم يتوقعه .

 ⁽٧) البينة: الدليل والحجة .

⁽٨) تنفيذ دعواه: إبطال ما ادعاه.

⁽٩) ويضرب عنه جملة: يتركه تمامًا .

⁽١٠) المهج: جمع مهجة وهي الروح.

⁽١١) بديًا: من أول الأمر.

⁽۱۲) غررتم: خدعتم .

⁽١٣) أثقبهم بصيرة: أشدهم وأقواهم حجة.

وهل جرت العادة أن يدع اللبسيب حجته فلا يذكرها ولا يبدي لخسصمه الغلط فيما قال، ويسرع في تسفيهه ويفرط في أذاه؟

وهل يجوز أن يواجه رجل قومًا لهم دين ورئاسة فيثير عليهم الناس، ويدبر في قــتل كبــارهم وأشــرافهــم وسبي ذراريهم وأولادهم، ثم لا يــعرضــون له في دعواه، مع أنه ليس بمتعذر ولا ممتنع، وإنما هو أمر سهل ميسور؟

وهل مثل ذلك إلا مثل رجل أتى بدعوى وأحضر بينة على دعواه، وعند المدعي عليه ما يبطل تلك الحجة، فيدع إظهار ذلك ويلجأ إلى الخصومة والمحاربة التي يقتل فيها القريب والصديق، ويسلب منه المال والعتاد، ثم يقول: لقد تركت مقارعته الحجة بالحجة تهاونًا بأمره، ولو كان هذا الرجل من المجانين لما صح منه أن يفعل ذلك، فكيف بقوم هم أرجح الناس رأيًا وأثقبهم بصيرة؟

(دلائل الأقوال الدالة على عجز العرب حين تخدوا بالقرآن)

٧- وأمَّا «الأقوالُ» فكثيرة:

منها حديث ابن المُغيرة، رُوي أنه جاء حتى أنّى قُرْيشًا فقال: إن النّاس يجتمعون غدًا بالموسم، وقد فَشَا^(۱) أَمْرُ هَذَا الرجل في الناس، فَهُمْ سائلوكم عنه فماذا تَرُدُون عليهم؟ فقالوا: مجْنُون يُخْنَق^(۲)، فقال: يأتُونه فيكلِّمونه فَيَجدُونَه صحيحًا فصيحًا عاقبلاً، فيكذَّبُونكم! قالوا: نقول: هو شاعر، قال: هم العَربُ، وقد رَوَوْا الشعر، وفيهم الشعراء، وقوله: ليس يُشْبه الشعر، فيكذَّبُونكم! قالوا: نقول: هو كاهنٌ، قال: إنهم لَقُوا الكُهَّان، فإذا سمعوا قَولَهُ لَم يجدوه يُشْبه الكَهَنة، فيكذَّبُونكم!

ثم انصرف إلى منزله فقالوا: صَباً الوليد - يعنون: أسلم - ولئن صَباً لا يبقى أحد لا صَبَا، فقال لهم ابن أخيه أبو جهل بن هشام بن المغيرة: أنا أكفيكُمُوه (٣)، قال: فأتاه محزونًا، فقال: ما لك ياابن أخ؟ قال: هذه قريش تجمع لك صدقة يتصد قُون بها عليك، تستعين بها على كبرك وحاجتك، قال: أولست أكثر قريش مالاً؟! قال: بكى، ولكنهم يزعُمون أنك صبات لتصيب من فضل طعام محمد وأصحابه، قال: والله ما يَشبعون من الطعام، فكيف يكون لهم فضول؟!

(٢) مجنون يخنق: به داء وعلة .

⁽١) فشا أمر: انتشر.

⁽٤) لعمري: قسمي.

⁽٦) بابل: مدينة قديمة بأرض الرافدين.

⁽٣) أكفيكموه: أمنعه عن اتباع محمد .

⁽٥) بين أظهركم: بينكم ولا يخفى عليكم أمره.

⁽٧) حذقه: مهارته .

٧- هذه كانت أحوالهم، أما أقوالهم فكثيرة، منها: حديث ابن المغيرة-وكان سيدًا في قومه، وله هيبة في قريش كلها- الذي أتى مجلس قريش وقال: لقد انتشـر أمر محمـد والناس يأتون غدًا ويسألونكم عنه، فمـاذا تقولون؟ وبماذا تردون؟ قالوا: نقول: إنه مجنون، قال: يأتونه فيكلمونه فيجدونه عاقلاً فصيحًا فيكذبونكم.

نقول: إنه شاعر، قال: إن كلامه لا يشبه الشعر فيكذبونكم.

نقول: هو كاهن، قال: إن قوله لا يشبه ما يقوله الكهان.

قالت قريش: لقد أسلم الوليد، وسوف يتبعه خلق كثير في الإسلام، وخافوا على مكانتهم. بين الرجُل وامرأته، والرجل وأخيه، إنَّا لله، أما تعلمون أنَّ محمـدًا فرَّق بين فُلان وفلانة زوجته، وبين فُلانَ وابنه، وبينَ فُلان وأخيه، وبين فُلان ومواليه (١)، فلا ينفعهم ولا يلتفِتُ إليهم ولا يأتيهم؟ قالوا: بلي، فاجتمع رأيهم على أن يقولوا: إنه ساحرٌ، وأن يردوا الناس عنه بهذا القول.

وانصرف، فمرَّ بأصحاب النبي عَلِيْكُمْ مُنطَلقًا إلى رَحْله، وهم جلوس في المسجد، فقالوا: هل لك ياأبا المغيرة إلى خير؟ فرجع إليهم فقال: ما ذَلك الخير؟ فقالوا: التوحيد، قال: ما يقول صاحبكم إلا سحرًا، وما هُو إلا قـولُ البَشَر يَرُويه عن غيره، وعُـبُس في وجوههم وبُسَر (٢) ثم أَدْبَر (٣) إلى أهله مُكَذَّبًا، واستكبر عن حديثهم الذي قالوا له وعن الإيمان، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكُرَّ وَقَدُّر (١٨) فَقَتِلَ كيف قدر ﴿ المدنر: ١٩،١٨ ا الآية.

٨- ومنه ما رواه محمد بن كعب القُرَظي قال(٤) : حُدِّثت أنَّ عُتبة بن ربيعة – وكان سيِّدًا حليمًا- قال يومًا: ألا أقُومُ إلى مُحمَّد فأكلُّمه فأعرضُ عليه أمورًا لعلَّه أن يقبلَ منها بعضها، فنُعُطيه أيُّهَا شَاءً؟ - وذلك حين أَسْلَم حَمْزَةٌ (٥) رضى الله عنه، ورأوا أصحابَ النبي عَلِيْكُم يكثرون- قالوا: بــلى يا أبا الوليد! فقام إليه، وهو عَلِيْ اللَّهِ عَلَيْ اللَّهِ عَلَى المسجد وَحَدَه، فقال: يا ابن أخى! إنَّك منَّا حيثُ علمت من السُّطُه في العشيرة (٢) والمكان في النَّسب، وإنَّك أتيت قومَك بأمر عظيم، فرَّقْت بينَ جماعتهم، وسَفَّهُت (٧) أحلامهم، وعبت الهتهم، وكفّرت من مَضى من آبائهم، فاسمع منِّي أعرض عليك أموراً تَنظُر فيها، لعلك أن تقبلَ منها بعضها، فقال رسول الله علين أ: قُل، قال: إنْ كُنتَ إنَّمَا تريدُ المالَ بمَا جئتَ به من هذا القول،

⁽١) الموالي: تطلق على العبيد وهو المراد هنا .

⁽٢) عبس وبسر: قطب وجهه وزاد عبوساً.

⁽٣) أدبر: عاد .

⁽٤) جاءت هذه الرواية في سيرة ابن هشام: ١/٣١٣، كما يقول الأستاذ شاكر .

⁽٥) حمزة هو عم النبي عَيْنَا .

⁽٦) السطة في الحسب: الشرف والمكانة.

⁽٧) سفهت أحلامهم: وصفت عقولهم بالسفه.

ذهب أبو جهل إلى الوليد بن المغيرة يحاول أن يثنيه عن عزمه؛ لأنه قد دخل الإسلام في ظنه .

أتى الوليد قـريشًا فـقال: أتزعمـون أني دخلت في الإسلام، وأقـسم إني ما

قلتم: إن محمدًا مجنون وليس هو بمجنون.

وقلتم: إنه شاعر وليس كذلك فأنتم شعراء.

وقلتم: إنه كاهن، ولا يتحدث بشيء، إلا أن يقول: إن شاء الله.

وإنما أقول: إنه ساحــر يفرق بين الرجل وزوجه، وبين الأب وابنه، وبين المرء وأخيه ومواليه، فاجتمع رأيهم على الأخذ برأي الوليد بن المغيرة: بأنه ساحر.

ترك قريشًا ومر بأصحاب الرسول وهم في المسجد، فقالوا له: هل لك في التوحيــد فهو خيــر من الشرك؟ قال لأصحاب مــحمد: إنه ساحــر، وما قوله إلا رواية عن غيره، وعبس في وجوههم وعاد إلى أهله مكذبًا مستكبرًا .

٨- أسلم حمزة عم الرسول عليا الم وتبعه جمع من الناس، فقام عـتبة بن ربيعة وكـان سيدًا حليمًا مـشركًا إلى رسول الله، وهو في المسـجد وحده يريد أن يغريه بترك الدعوة إلى التوحيد، قال له:

إن كنت تريد مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تصبح أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفًا سودناك علينا، وإن كنت تريد مُلْكًا جعلناك مُلكًا علينا، وإن كان الذي مسك طائف من الجن دعونا لك الطبيب حتى نبرتك من علتك.

جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كُنْتَ تُريد شُرَفًا سوّدناك (١) حتى لا نقطع أمراً دُونك، وإن كنتَ تريدُ به مُلكًا مَلَّكناكَ علينا، وإن كانَ هذا الذي بك رئياً لا تستطيع ردُّه عن نُفْسك (٢) ، طلبنا لك الطبّ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبْرِئُك منه، فإنّه ربّمًا غلب التّابع (٣) على الرجل حتى يُدَاوَى منه، أو لعلّ هذا شعرٌ جاش به صَدْرَكَ، فإنكم لعمري بني عبد المطلب تَقْدرون من ذلك على ما لا نَقْدر عليه، حتى إذا فَرَغَ قال له رسول الله عَلَيْكُمْ: أُوقَدُ فَرَغْتَ؟ قَالَ: نعم، قال: فاسمع منّي، قال: قُلْ، قال: بسم الله الرَّحْمَن الرَّحيم ﴿حَمَّ ۞ تَنزِيلَ مِّن الرَّحِمنِ الرَّحِيمِ ۞ كَتَابَ فَصَلَتَ آيَاتُهَ قَرْآنَا عَرَبِيًّا لِقُومِ يَعْلَمُونَ ٣ بَشيرًا وَنَذيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُم فَهُمْ لا يسمعون ﴾ إنصلت:١-٤]، ثُمَّ مَضَى فيها يقرؤها، فلمَّا سَمعَهَا عَتْبَة أَنْصَت لَهُ، وأَلْقَى يَدَيْه خَلْف ظهره مُعتمدًا عليهما يَسْتَمعُ منه، حتى انتهى رسولَ الله عَالِيْكُ اللهِ عَالِيْكُ ا إلى السَجْدة منها فُسَجَدَ، ثم قال له: قد سمعت ما سمعت فأنت وذاك!

فقام عُتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: لقد جاء كم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به (٤) ، فلما جَلَسَ قالوا: ما وراءك؟ قال: ورائي أنِّي سمعتُ قولاً والله ما سـمعتُ بمثله قطُّ، ومَا هو بالشُّعـر ولا السُّحر ولا الكَهَانة، يا مُعشّرُ قُريش أطيعوني، خَلُوا بين (٥) هَذَا الرَّجُل وبين ما هو فيه واعــتزلُوه، فوالله ليكونَنّ لقوله الذي سُمعتُ نُبَأُ (*) ، فإن تُصبُه العربُ فقد كُفيتُمُوه بغيركم، وإن يُظهره على العرب به، فمُلكُه ملككم، وكنتم أسعد الناس به، قـالوا: سحرك بلسانه! قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بداً لكم.

000

⁽١) سودناك: جعلناك سيدًا.

⁽٢)، (٣) التابع: من الجن يلازم المريض فيتبادلان الحديث، وبك رئيًا: غلب عليك الشيطان وسيطر على تصرفاتك.

⁽٤) جاء بغير الوجه الذي ذهب به: تغير حاله وأصبح مدهوشاً متحيراً .

⁽٥) خلو بينه وبين ما هوفيه: اتركوه وشأنه ولا تتعرضوا له بسوء.

⁽٦) نبأ: خبر.

فلما فَرَغ من كلامه قرأ الرسول عَلَيْكُم أول سورة فسصلت حتى بلغ آية السجدة فسجد. وقال لعتبة: قد سمعت ما قرأت فأنت وذاك .

وعاد عتبة إلى قومه بوجه غير الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قال: إني سمعت قولاً ما سمعت مثله قط: ليس شـعرًا، ولا سحرًا، ولا كهانة، فخلوا ما بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، اعتزلوه، ولا تناوشوه، فإن أصابته العرب فقد قاموا بما كنتم تــريدون القيام به دون أن تلطخوا أيديكم بدمــه، وإن بذّهم وانتصر عليهم كنتم أسعد الناس به، فأنتم قومه.

قالوا: سحرك محمد بلسانه وقرآنه.

قال: قلت لكم رأيى فاصنعوا ما بدا لكم.

٩ - ومنه جاء في حديث أبي ذر سبب إسلامه: رُوي أنه قال: قال لي أُخِي
 نيس:

إنَّ لي حاجةً إلى مكَّة، فانطَلَقَ فراث (١) ، فقلت: ما حَبَسَك؟ (٢) ، قال: لقيت رَجُلاً يقول: إنَّ الله تعالى أرسله، فقلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون شاعر ، ساحر ، كاهن . قال أبو ذر : وكان أُنيِّس أحد الشُعرَاء، قال: والله لقد وضعت قوله على أقراء (٣) الشعر فلم يلتئم (٤) على لسان أحد، ولقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، والله إنَّه لصادق وإنَّهُم لكاذبون .

000

١٠ - ومن ذلك ما رُوي أنَّ الوليد بن عُقْبَة أَنَى النبيَّ عَيَّا فقال: اقرأ، فقرأ عليه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكرِ وَالْبَعْي يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٠]، فقال: أعد، فأعاد، فقال: والله إنَّ لَهُ لِحَلاوة، وإنَّ عليه لَـطَلاَوة، وإنَّ أَسْفَله لمعرِق (٥)، وإنَ أَعْلاه لمُسْرِ، وما يَقُول هَذَا بَشَرٌ.

000

⁽١) انطلق فراث: أي أبطأ.

⁽٢) ما حبسك: ما أخرك عنى .

⁽٣) أقراء الشعر: أوزانه وبحوره وأغراضه.

⁽٤) لم يلتثم: لم يجر .

⁽٥) معرق: يضرب في الأعماق ويؤثر في النفس.

٩- ومنه مــا رواه أبو ذر رضي قال: قال لى أخــى أنيس: إنه كان له حــاجة فانطلق إلى مكة فأبطأ عليه، فقال له: ما سبب تأخيرك؟ قال: لقيت رجلاً يقول: إن الله أرسله، ويقول الناس: إنه شاعر، ساحر، كاهن.

وكان أنيس شاعراً يدرك الشعر وأقوال الشعراء، فقال: إن ما يقوله هذا الرجل لا يدخل في أوزان الشعر ولا بحوره، وليس من طرائقه أو أنواعه .

وليس كاهنًا، فأقواله ليست كأقوال الكهنة، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون.

١٠ – ومنه إعجاب الوليد بن المغيرة (١) حين استمع إلى بعض من آي القرآن، وطلب إعادتها مرة بعد أخرى، ثم قال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لممتد إلى الأعماق، وإن أعلاه لمشمر في السماء، وما يقول هذا بشر؛ إذ لا يقدر على قوله أحد من الناس.

000

⁽١) في النص: الوليد بن عقبة .

(الاحتجاج لدلالة هذه الأحوال والأقوال على إعجاز القرآن)

1 ا - واعلم أنه لا يجوز أن يقال في هذا وشبهه إنه لا يكون دليلاً حتى يكون من قول المشركين بعضهم لبعض، حين خَلُوا بأنفسهم فتفاوَضُوا وتحاوَرُوا وأَفْضَى بعضهم بذات نفسه إلى بعض - وإن كان منه من كلام المؤمنين، أو ممن قاله ثم آمن، فإنه لا يصح الحرح الاحتجاج به في حكم الجدّل، من حيث يصبير كأنّك تحتج على الحصم برأي تراه أنت، وبقول أنت تقوله، وذلك أنه إنما يمتنع أن يدُلَّ إذا صدر القول مصدر الدعوى والشيء يَدْفَعه (١) الخصم ويُنكره، فأمّا ما كان مَخْرَجه مخرج التنبيه على أمر يعرف ذوو الخبرة، وأطلقه قائله إطلاق الواثق بأنه مَعْلُوم للجميع، وأنّه ليس من بصير يعرف مقادير الفضل والنّقص إلا وهو يُحوج إلى تسليمه والاعتراف به شاء أم أبَى (٢) - فهو دليلٌ بكل حال، ومن قول كلّ قائل، وحُجّة من غير مَثْنَويَة (٣) ، ومن غير أن يُنظر إلى قائله أمُوافق أم مخالف، ذاك لأن الحرجا الدّلالة ليست من نفس القول وذات الصفة، بل في مَصْدَرهما، وفي أن أخرجا الدّلالة ليست من نفس القول وذات الصفة، بل في مَصْدَرهما، وفي أنْ أخرجا مُخْرَجَ الإخْبَارِ عن أمْر هو كالشيء البادي للعيون، لا يُعْمِل أحَدٌ بَصَرَهُ إلا رآه.

١٢ - وإذا رأينا «الأحوال» و«الأقوال» منهم قد شهدت، كالذي بَان باستسلامهم للعَجْز وعلمهم بالعظيم من الفَضل والبَائن (٤) من المزيَّة، الذي إذا قيس إلى ما يستطيعونه ويَقدرون عليه في ضُروب النَّظم وأنواع التصرُّف، فاتَهُ الفَوْت الذي لا يُنَالُ (٥) ، وارتقى إلى حيث لا تطمع إليه الآمال، فقد وجب القطع بأنَّه مُعجز ".

ذلك لأنه ليس إلا أحدُ الأمرين: فإمّا أن يكونوا قد علموا المزيَّة التي ذكرنا أنهم علموها على الصِّحَّة - وإما أن يكونوا قد تَوهَّمُوهَا في نظم القرآن، وليست هي فيه لغلط دخل عليهم. ودعوى الثّاني من الأمرين سُخْفُ (٢) ؛ فإن ذلك لو ظُنَّ بالواحد منهم لبَعُدَ، ذلك لأنه لا يُتَصَوَّر أن يَتَوَهَّم العاقل في نَظم كلام، جُلَّ مُناه (٧) وَمُنَى

(١) يدفعه الخصم: يرده.

⁽۲) أبي: رفض.

⁽٣) من غير مثنوية: من غير استثناء.

⁽٤) البائن عن المزية: الخارج عن الفضل.

⁽٥) فاته الفوت: فاته الأمر العظيم.

⁽٦) سخف: هزيل وباطل.

⁽٧) جل مناه: معظم أمنياته .

١١- وما روي عن الوليد بن المغيرة وأبي ذر والوليد بن عقبة وغيرهم ممن وصفوا القـرآن بالحلاوة والطلاوة، لا يقال: لا يصح الاحتـجاج به؛ لأنك تحتج على الخصم بـرأي تراه أنت، وبقول تقول أنت؛ إذ يمتنـع الاحتجـاج إذا ادعيت شيئًا والخصم ينكره. أما إذا كان الإعجباب من شخص مجرّب له خبرة، ويقول قولاً يعلمه الجميع ولا ينكرونه، سواء وافق رغبتهم أم خالفها، فلاشك أن ذلك يكون حجة على الجميع دون استثناء؛ لأنه خبر ظاهر للعيان، ولا يُعمل أحد بصره إلا رآه.

١٢- وإذا رأينا أحوالهم وأقوالهم تشهد بعجزهم، وأن نظم القرآن يرتقي إلى مكانة لا تبلغها الآمال، فقد تأكد لهم أن القرآن معجز، إذ لا يخلو من أحد آمرين:

إما أنهم علموا المزية في القرآن على الحقيقة، وإما أنهم توهموا المزية في نظم القرآن وليست هي فيه على الحقيقة .

والأمر الثاني باطل؛ إذ لا يتصور أنهم يستطيعون معارضة القرآن، ويقدرون على إفحام الخمصم، ثم يقولون: إن ما في القرآن من مزية وفعضل يرجع إلى الوهم والخطأ، وإذا صدر هذا القول من أحدهم فكيف يشملهم جميعًا، وكيف يكون الأمر كذلك وهم أرباب فصاحة يميزون الكلام الحسن من الرديء، ويعرفون القائل إذا تليت عليهم قصيدة شـعر دون أن يذكر اسم القائل، ويعـرفون الغرض من القصيدة إذا كان فيها بيت من الشعر يطلب فيها الشاعر المنح والعطاء، وذلك لشدة تمرسهم بقرض الشعر، فكيف يصح الغلط أو التوهم منهم؟ وإذن فقد زالت الشبهة واتضح إعجاز القرآن لهم . أصحابه أن يستطيع معارضته، وأن يقدر على إسكات خصمه المباهي (١) به، أنّه قد بلغ في المَزيّة هذا المبلغ العظيم غلطاً وسهوا، فكيف بأن يَشْمَلِ هذا الغلط كُلّهم، ويدخل على كافّتهم؟ وأي عقل يرضى من صاحبه بأنْ يتوهم عليهم مثل هذا الغلط، وهم مَنْ إذا ذَاقَ الكلام عرف قائله من قبل أن بُذُكر، ويسمع أحدهم البيت قد اسْتَرْفَدَهُ الشاعر (٢) فأدخله في أثناء شعر له، فيعرف موضعه ويُنبّه عليه، كما قد اسْتَرْفَد لذي الرُّمَّة: أهذا شعرك؟ هذا شعر لاكه أشد لحبين منك (١) إلى ضروب من دقيق المعرفة يقل هذا في جنبها؟ وإذا لم يَصَع الغلط عليهم، ولم يَجزُ أنْ يُدَعَى أنّه كان معهم في زمانهم من كان بالأمر أعلم، وبالذي وقع التحدي إليه أقوم، فقد زالت الشبهة في كونه معجزًا له.

000

١٣ – وإن قالوا: فإن همهُنَا أمراً آخر، وهو ما عَلَمْنَا من تقديمهم شعراء الجاهليَّة على أنفسهم، وإقْرارهم لهم بالفضل، وإجماعهم في امرى القيس وزهير والنابغة والأعشى أنهم أشعر العرب، وإذا كان ذلك كَلَالك، فمن أين لنا أن نعلم أنَّهُم لم يكونوا بحيث لو تُحُدُّوا إلى معارضة القُرآن لَقَامُوا بها واستطاعوها؟

قيل لهم: هذا الفضل على ما فيه لا يَقُدَح في موضع الحُبجَّة، وذلك أنهم كانوا كما يَخْفَى، يَرْوُون أشعار الجاهليين وخُطَبَهم، ويَعْرِفون مقاديرَهُم في الفصاحة معرفة من لا تُشكلُ (1) جهات الفَضْل عليه، فلو كانوا يرون فيما رووا وحفظوا مزيَّة على القرآن أو رأوه قريبًا منه، أو بحيث يجوز أن يُعارض بمثله، أو يَقَعَ لهم إذا قاسوا أو وازنوا أنَّ هذا الذي تُحُدُّوا إلى معارضته لو تُحُدِّي إليه مَنْ قبلهم لاستطاعوا أن يأتُوا بمثله، لكانوا يَدَّعُون ذلك ويذكرونَه، ولو ذكروه لذكر عنهم، ومُحال أو رَجَعنا إلى أنفسنا واستشفَقنا (٥) حال الناس فيما جُبلوا عليه (١) - أن

⁽١) المباهى به: المفاخر. (١) استرفده: طلب رفده وعطاءه.

⁽٣) لاك الشيء: مضغه، واللحيان: العظمان اللذان فيهما الأسنان، والمعنى : قاله من هو أفخم منك شعرًا .

⁽٤) لا يشكل: لا يغيب ولا يختلط بغيره.

⁽٥) استشفقنا حال الناس: تأملنا أحوالهم. (٦) جبلوا عليه: اعتادوا عليه وأنسوا به .

١٣- وثمة اعتراض آخر: فقد علمنا أنهم يجلُّون شعراء الجاهلية، ويضعونهم موضع القمة في الشعر، وخاصة أصحاب المعلقات كامرئ القيس وزهير والنابغة والأعشى من الذين كتبت قصائدهم بماء الذهب وعلقت على أستار الكعبة. فمن أين لنا أن نعرف إذا تحدوا إلى معارضة القرآن لقاموا بها وأمكنهم الإتيان بمثل

قيل لهم: هذه حجة لنا وليست حجة لكم، فأنتم تروون الشعر وتعرفون قدر الشاعر، فلو وجدتم في الشعر مـزية تفضل القرآن، أو توازيه، أو تكون قريبة منه لذكرتم ذلك ، ولو ذكرتموه لذُكر عنكم، ولما قرّعكم أحد بالعجز عن الإتيان بمثل القرآن شبهًا أو نظمًا، وإذا كان شعر الفحول مثل القـرآن الذي تدعيه، لما جاز لنا أن نلوذ بالصمت، ونسلم بإعجاز القرآن.

ومعلوم أنهم لم يقلولوا: إن أشعارهم وأشعار الأقدمين منهم لها ملزية مثل

وقد ثبت أنهم لم يقولوا ذلك، وإنما كانوا بين أمرين:

إما أن يسلمـوا بالعجز والقصور، وإلا قـبل لهم بالإتيان بمثل القرآن فـصاحة ونظمًا حين يخلوا بعضهم إلى بعض. يكونوا قد عَرَفُوا لمَا تُحُدُّوا إليه وقُرِّعُوا^(۱) بالعجز عنه شبهًا ونَظمًا، ثم يُتلَى عليهم: ﴿ وَقُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِشْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِشْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لَبَعْضٍ ظَهِيرًا (٢) ﴾ [الإسراء: ٨٨]، فلا يزيدون في جوابه على الصمت، كَانَ بَعْضُهُمْ لَبَعْضٍ ظَهِيرًا لَن تَقَدَّم ما علمت أنه لا يَقْصُرُ (٣) عما أتيت به، فمن أين استجزئت أن تَدَّعي هَذِه الدَّعْوَى ؟؟.

فإذا كان من المعلوم ضرورة أنهم لم يقولوا ذلك، ولا رأوا أن يَقُولوه، ولو على سبيل الدَّفَع والتلبيس والتَّشَغُب بالباطل (٢٠)، بل كانوا بين أمرين: إمّا أن يُخبروا عن أنفسهم بالعجز والقُصور، وذلك حين يخلو بعضهم ببعض، وكان الحال حال تصادق (٥٠) - وإمّا أن يَتَعَلَّقُوا بما لا يتعلَق به إلا من أعوزته (٢٠) الحيلة، ومَنْ فُلَان تَصادُق (٥٠) بالحجّة، من نسبته إلى السحر تارة، وإلى أنه مأخوذ من فُلان وفُلان أخرى، يُسمعون أقوامًا مَجْهولين لا يُعْرَفون بعلم، ولا يُظنَّ بهم أن عندهم علمًا ليس عند غيرهم - ثبّت أنهم قد كانوا عَلموا أنَّ صُورة أولئك الأوائل صورتُهم، وأن التقدير فيهم أنهم لو كانوا في زمان النبي على اللهم، وإذا كان هذا هكذا، فقد لكانوا في مثل حال هؤلاء الكائنين في زمانه حالُهُم، وإذا كان هذا هكذا، فقد لكنوا في مثل حال هؤلاء الكائنين في زمانه حالُهُم، وإذا كان هذا هكذا، فقد انتفى الشك، وحصل اليقين الذي تسكن معه النفس، ويطمئن عنده القلب، أنه الحُجة به على الخلق كافّة، وبانَ أنْ قد سُعد المؤمنون وخسر المُبطلُون. والحمدُ لله ربِّ العالمين على أنْ هَذَانا لدينه، وأنا قلوبنا بُبرهانه ودليله، وإياه جَل وعز نسأل ربِ العالمين على ما هذى له، وإثمام النَّعْمة بإدامة ما خَوَله (٨) بفضله ومَنّه .

000

⁽١) قرعوا: وبخوا. (٢) ظهيرًا: معينًا.

 ⁽٣) لا يقصر: لا يقل.
 (٤) الدفع: الرد، التلبيس: التخليط، والتشاغب: تصنع الشعب.

⁽٥) تصادق: تصاف . (٦) أعوزته الحيلة: افتقدها .

 ⁽٧) فل بالحجة: هزم وانكسر.
 (٨) إدامة ما خوله: أن يدوم ما منحه بفضله وعطائه .

وإما أن ينسبسوه إلى السحر تارة، وأنه من أساطير الأولين تارة أخسرى إذا أعوزتهم الحيل وانقطعت الحجة.

وثبت لديهم أن صورة البلغاء من الأوائل لا تختلف عن صورتهم، وأنهم لو كانوا في زمن النبي عليك وتحداهم بالقرآن لكان حال الأولين مثل أحوالهم في زمن الرسول عليكم .

وإذا كان الأمر كذلك فـقد انتفى كل شك بأن القرآن غير معـجز وغير ناقض للعادة، وهو معـجزة مثل قلب العصا حـية، وإحياء الموتى في ظهور حـجته علي الخلق جميعًا .

فصل (في شبهة)

١٤ - واعلم أنَّ ههُنا بابًا من التلبيس (١) أنت تَجدُه يدورُ في أَنْفُس قوم من الأشـقياء، وتراهم يُومئون إليه، ويَهمسون به، ويُستَهوُون الغرُّ (٢) الغبي بذكره، وهو قولهم:

«قد جرت العادة بأنْ يَبْـقَى في الزَّمَان مَنْ يَفُوت (٣) أَهْلَه حتى يُسَلِّمُوا له، وحتى لا يَطْمَعَ أحد في مُدَانَاتُه (٤)، وحَتَّى لَيْقع الإجماع منهم أنَّهُ الفَرْدُ الذي لا يُنَازَع (٥)، ثم يذكرون أمرأ القيس والشعراء الذين قُدِّموا على من كان معهم في أعصارهم (٦)، وربما ذكروا الجَاحظَ وكلُّ مَذْكُور بأنَّه كـان أفضلَ من كان في عـصره، ولهم في هذا الباب خَبْطٌ وتخليطٌ لا إلى غاية، وهي نَفْثَةٌ (٧) نَفَشها الشيطانُ فيهم، وَإِنَّمَا أَتُوا من سوء تَدَبّرهم لما يسمعون، وتسرّعهم إلى الاعتراض قبل تَمَام العلم بالدليل، وذلك أنَّ الشَرْط في المزيَّة الناقيضة للعادة، أن يَبْلُغُ الأُمرُ فيها إلى حَيْثُ يَبْهَر ويَقْهَر، حتى تنقطع الأطماعُ عن المعارضة، وتُخْرُس الألْسُنُ عن دُعُوَى المداناة، وحـتى لا تُحَدَّثُ نَفْسٌ صَاحِبَهَا بَأَنْ يَتَصَدَّى، ولا يَجُول في خَلَد (٨) أنَّ الإِتيانَ بمثله يُمكن، وحتى يكون يأسهم وإحساسهم بالعجز عنه في بعضه، مثل ذلك في كُلُّه .

٥١ - وليت شعري (٩) ، مَنْ هَذَا الذي سَلَّم لهم أنَّهُ كان في وقت من الأوقات من بَلَغَ أَمْرِه في المَزيَّة وَفي العُلُوَّ على أهل زَمَانه هذا المُبْلَعْ، وانتهى إلى هَذَا الحَدِّ؟ إن قيل: «امرُّؤُ القَيْس»، فـقد كان في وقته من يُـبَارِيه ويُمَاتنه (١٠٠)، بل لا يُتَحَاشَى من أن يَدَّعَى الفَضْلُ عليه فقد عرفنا حديث «عَلْقَمة الفَحْل»، وأنه لما قال امرؤ القيس، وقد تناشدا: «أَيُّنَا أَشْعِر؟» قال: «أنا» غَيْرَ مُكْتَرِث ولا مُبال، حتى قال امرؤ القيس: «فَقُلْ وَانْعَتْ فَرَسَكَ وَنَاقَتَكَ، وَأَقُول وأَنْعَتُ فرسِي وناقتي»، فقال علقمة: «إني فاعل، والحَكَمُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ المرأةُ من ورائك»، يعني أمَّ جُنْدُب امرأة امرئ القيس، فقال امرؤ القيس:

(٢) الغرّ: الساذج الجاهل.

(٣) يفوت الناس: يسبقهم.

⁽١) بابًا من التلبيس: من الخلط.

⁽٤) مداناته: القرب منه.

⁽٧) نفثة: نفخة، هبة.

⁽١٠) يماتنه: يصلب أمامه ويشتد معه .

⁽٩) ليت شعري: ليت علمي .

⁽٦) أعصارهم: عصورهم. (٥) لا ينازع: لا يقاوم . (٨) لا يجول في خلد: لا يخطر بذهن.

فصل

إن كل عصر فيه أفذاذ سبقوا الناس ولم يدانيهم أحد، مثل امرى القيس شاعر الجاهلية، والجاحظ أمير البيان، وأسرعوا يعترضون بهذه الدعوى، وهي دعوى فاسدة؛ لأن من شرط الأمر الذي يخالف العادة أن تنقطع الأطماع دون معارضته، ولا يمكن أن يتصدى له أو يأتي بمثله، فيكون الإحساس بالعجز، والسيأس من القرب منه شامل لجميعه كما هو شامل لبعصه.

000

10- ثم إن هذه قضية لا نسلم بها، فقد كان في زمن امرئ القيس من يباريه ويتغلب عليه، ويدعي الفضل دونه، وحديثه مع علقمة الفحل الشاعر مدون في كتب الأدب، فقد تباريا في الإنشاد، ووصف كل منهما فرسه وناقته، واحتكما لامرأة تسمى أم جندب، امرأة امرئ القيس، ففضلت علقمة على زوجها امرئ القيس.

7.

خَلِيلِيَّ مُرَّا بِي عَلَى أُمِّ جُنْدَبِ نُقَيضٌ لُبَانَاتِ الفُوادِ المُعَذَّبِ (١) وقال عَلَقمة:

ذَهَبْتَ مِنَ الهِجْرَانِ فِي كُلِّ مَذْهَب وَلَمْ يَكُ حَقًا كُلُّ هَـٰذَا التَّجَنُّبِ وَكَمْ يَكُ حَقًا كُلُّ هَـٰذَا التَّجَنُّبِ وَتَحَاكَما إلى المرأة، فَفَضَلَت عَلْقَمة (٢).

999

١٦ - وَجَرَى بين امرى القيس والحارث اليَشْكُري في تَشْمِيمه أنصاف الأبيات
 التي أوَّلها:

أَحَــارِ أُرِيــك بَرْقًا هَــب وهنا كَنَــارِ مَجُــوس تَسْتَــعرُ اسْتِعَـاراً (٣) ما هو مشهور، حتى قال امرؤ القيس: لا أُمانتك بعد هذا (٤).

000

(الأخبارالدالة على اختلاف الناس في أي الشعراء أشعر)

1V - ثم وجدنا الأخبار تدُلُ على خلاف لم يَزَلُ بين الناس فيه وفي غيره، أيَّ أشعر؟ وعلى أيِّ لم يَسْتَقَرَّ الأَمْرُ في تقديمه قَرَارًا يرفعُ الشَّك. رووا أنّ أمير المؤمنين عليًا، رضوان الله عليه، كان يُفَطِّر النَّاسَ في شهر رمضانَ، فإذا فَرغَ من العَشاء تكلَّم فأقَلَ، وأوجزَ فَأَبْلَغَ. قال: فاختصم النَّاسُ لَيلةً في أشعر الناس، حتى ارتفعت أصواتهم، فقال رضوان الله عليه لأبي الأسود الدؤلي (٥): قل يا أبا الأسود، وكان يتعصب لأبي دَوَّاد، فقال أشعرهم الذي يقول:

أَحْسُودِي ذُو مَيْسَعَة إِضَرِيجُ مَنْفَحٌ مِطْسُرحٌ سَبُسُوحٌ خَسَرُوجٍ مَنْفَحٌ مَطْسُرحٌ سَبُسُوحٌ خَسَرُوجٍ حَمَلَتُهُ، وَفِي السَّسِرَاة دُمُوجٌ (٢)

ولَقَدْ أغْتَدى يُدَافِعُ رُكْنِي مَخْلَطٌ مَزْيَلٌ مَكَدَّ مُفَرِّ مَفَرَّ مَفَرَّ مَفَرَّ مَفَرَّ مَفَرَّ مَفَرَّ مَفَرَّ مَاحًا سَلْهَبٌ شَرْجَبٌ كَأَنَّ رَمَاحًا

واء النفس. (٢) تحاكما إلى المرأة: جعلاها حكمًا وقاضيًا .

(١) لبانات الفؤاد: أهواء النفس.

(٤) لا أماتنك بعد هذا: لا أعارضك.

(٣) تستعر: تتقد.(٥) هو أبو الأسبود الد

(٥) هو أبو الأسود الدؤلي البصري، أول من أسس علم النحو، ونـقط المصحف، توفي سنة ٦٩هـ بطـاعون
 الجارف في خلافة ابن الزبير .

(٦) الأحوذي: السريع الجري، ذو ميعة: ذو نشاط، إضريج: يتفصد عرقًا، وهي صفة مدح، مزبل: خفيف الحركة، منفح: جسور، مطرح: بعيد الخطو، سبوح: يمد يديه في الجري، خروج: طويل العنق، سلهب: طويل، شرجب: طويل القوائم، وفي السراة دموج: في الظهر إحكام.

917 - وجرى بين امرئ القيس والحارث اليشكري أمر مثل هذا، حتى قال امرؤ القيس: لا أباريك ولا أعارضك بعد هذا.

000

۱۷ – ومازال الخلاف واقعًا بين الناس، فلم يجمعوا على سبق واحد من الشعراء على غيره .

تروى الأخبار: أن علياً بن أبي طالب وطلي المختصم الناس في مجلسه: أي أشعر الشعراء، حتى ارتفعت أصواتهم، وكان علي يفضل أبا دؤاد ولكنه قال: كل شعرائكم محسن، وإن يكن أحدهم أفضل من غيره، فالذي لم يقل رغبة ولا رهبة: امرؤ القيس فقد كان أصحهم قولاً، وأجودهم طرفة.

فأقبل أمير المؤمنين - رضوان الله عليه - على الناس فقال: كل شعرائكم مُحسن، ولو جَمَعهم زمانٌ واحدٌ وغايةٌ ومذهبٌ واحد في القول، لَعَلمْنَا أَيَّهُم أَسْبَقُ إلى ذلك، وكلُّهم قد أصباب الذي أراد وأحسن فيه، وإن يكن أحدهُم أفضلَ، فالذي لم يَقُلُ رَغْبَةً ولا رَهْبَةُ: امْرُو القَيس بن حجر، كان أصَحْهم بَادرَة، وأجودهم نادرة (١).

١٨ - وعن ابن عباس أنه سألَ الحُطيئة: مَنْ أَشْعَر النَّاس؟ قال: أمنَ الماضين أم من الباقين؟ فقال: إذَّنْ من الماضين، فهو الذي يقول:

ومَنْ يَجْعَلَ المُعْرُوفَ مِنْ دُون عَرْضِه يَفُرُه (٢)، ومَن لا يَتَى الشَّتْم يُشْتَم وما الذي يقول:

ولَسَـــتَ بمُستَبِــق أَخَا لا تَلُمّــه عَلَى شَعَـث (٣) ، أي الرِّجَال المُهَذَّبُ - بدون ذلك، ولكن الضراعة (٤) أفسدته كما أفسدت جُرُولاً - يعنى نفسه- والله ياابن عباس لولا الجَسَع والطَّمَع لكنت أشعر الماضين، فأما الباقون فلا أشك أنَّى أشعرُهم .

١٩ - وقالوا: كمان الأوائل لا يفضُّلون على زُهيُّر أحدًا في الشُّعْر ويقولون: «قد ظلمه حقّه من جعله كالنابغة»، قالوا: «وعامة أهل الحجاز على ذلك». وعن ابن عباس أنَّه قال: سامرت موره عمر بن الخطاب - رضوان الله عليه - ذات ليلة، فقال أنشدني لشاعر الشعراء، فقلت: ومَن شَاعر الشَّعْراء؟ قال: زُهَيْر، قلت: ياأميس المؤمنين، ولم كان شاعر الشعراء؟ قال: لأنه لا يَتَتَبّع وَحُشي (٦) الكلام في شعره، ولا يُعاظل (٧) بين القول.

⁽١) أضحهم بادرة: أبعدهم عن الخطأ، وأجودهم نادرة: أحسنهم طرفة.

⁽٢) يفره: يحفظه من العيب. (٣) لا تلمه على شعث: تقبله على عيبه .

⁽٤) الضراعة: الحنوع. (٥) سامرته: حادثته ليلاً.

⁽٦) وحشى الكلام: غريبه.

⁽٧) يعاظل: تركيب الكلام بعضه على بعض مما يؤدي إلى صعوبة فهمه .



١٨ - وسأل العباس رطين الحطيئة الشاعر: من أشعر الناس؟

قال: زهير، ومثله النابغة لولا أنه يتضرع ويتذلل، مما أفسده كما أفسدني، ولولا الطمع لكنت أشعر الماضين، أما المحدثون فأنا أشعرهم لاشك في ذلك.

000

19 - وكان الأوائل منذ فجر الإسلام لا يفضلون أحدًا على زهير، وأهل الحجاز يرونه أفضل من غيره من الشعراء، وعمر بن الخطاب رطخت كان يعده شاعر الشعراء؛ لأنه لا يتتبع غريب الكلام، ولا يدخل الألفاظ بعضها في بعض فيسلم شعره إلى التعقيد.

٣٠ - ورُويَ عن أبي عبيدةً أنهُ قال: أشعرُ النَّاس ثلاثةٌ: امرؤ القيس بن حجر، وزهير بن أبي سُلمَى، والنَّابغة الذبياني، ثم اخْتَلَفُوا فيهم: فزوَّرَت اليمانية تقديمًا لصاحبهم أخباراً رُفَعُوها إلى رسول الله عليك الدوروي عن يحيى بن سُليمان الكاتب أنه قال: بعَثني المنصور إلى حَمّاد الراوية أسأله عن أشْعُر النّاس، فأتيتُه وقلت: إنَّ أمير المؤمنين يسألك عن أشعر النَّاس، فقال: ذاك الأعشى صَنَّاجُهَا (١).

٢١- فقد علمنا أن امرأ القيس كان أشعرهم عندهم، وأن تفضيلهم غيره عليه إنَّمَا كَانَ عَلَى سَبِيلِ المبالغة، وعلى جهة الاستحسان للشِّيءِ يَتَمَثُّلُ به في الوقت ويَقَعُ في النَّفْس، وَمَا أَشْبَهُ ذَلَكَ مِن الأسباب التي يُعْطَى بَهَا الشَّاعِر أَكثر مما يستحقُّ، أليس فيه أنَّه مما لا يَبْعُدُ في القياس، وأنَّهُ مِمَّا يَتْسِع له الاحتمال، وأنَّه ليس بالقول الذي يُعاب، والحكم الذي يُزْرِي (٢) بصاحبه، وأن فضله عليهم لم يكن بالفضل الذي يمنع أن يكونوا أكْفَاءٌ " له ونظراءً يَسُوغ للواحــد منهم، ويَسُوعُ هو لنفسه، دعوى مساواته والتصدي لمباراته؟

هذا، وفي حاجـة المنصور إلى أن يُسأل عن أشـعر الشعراء، وُقَـدُ مُضى الدَّهْرُ بعد الدهر، دليل على أن لم يكن الذي رُوي من تَضْضيله قولاً مُجْمَعًا عليه من أصله وفي أول ما قيلَ، وأنه كان كالرأي يراه قـومٌ وينكره آخرون، وأن الـصورة كانت كالصورة مع جرير والفرزدق، وأبي تُمَّام والبحتريُّ. ذاك لأنه لو كان القولُ بأنَّهُ أَشْعَرُ النَّاسَ قُولًا صَدَرَ مُصَدَّرَ الإجماع في أُولُه، وحكمًا أَطْبَق (١) عليه الكَافّة حين حكم به، حتى لم يُوجَدُ مخالف، ثم استمر كذلك إلى زمان المنصور، لكان يكون مُحالاً أن يَخْفَى عليه حتى يحتاج فيه إلى سؤال حَـمّاد- وكان يكون كذلك بعيـدًا من حَمَّاد أن يبعثَ إلـيه مثلُ المنصور، في هيُّبته وسلطانه ودقَّة نظره وشدّة مُؤاخذته، يسألُه فيجازفُ له في الجواب، ويقول قولاً لم يَقُلهُ أُحد، ثُمَّ يُطلقه إطلاق الشيء الموثوق بصحته، المتقدّم في شُهْرَته، فتدبر ذلك .

⁽١) صناجة العرب: لما في شعره من طرب وموسيقي. (٢) يزري بصاحبه: يدني بمنزلته.

⁽٤) أطبق عليه الكافة: أجمعوا عليه جميعًا .

⁽٣) كفء: مماثل ونظير

٣٠٠ ويروى عن أبي عبيـدة- من أشهر اللغويين وصاحب مـجاز القرآن- أن أشعر الشعراء ثلاثة: امرؤ القيس، وزهير بن أبي سلمي، والنابغة الذبياني.

وروي أيضًا عن حـماد الراوية حين سأله الخليـفة المنصور عن أشـعر الناس، قال: الأعشى صنّاجة العرب.

فلم يتفقوا على من أشعر الناس، وإنما اختلفوا في ذلك اختلافًا بينًا .

٣١٦ - فإذا كان امرؤ القـيس أشعر الشعراء، وكان غيـره أفضل منه على سبيل الاستحسان والمبالغة مما لا يعيب امرأ القيس، وإذا كان بعضهم يفضل امرأ القيس، فلا يمنع أن يكون له أكفاء ونظراء يسوغ لهم دعوى مساواته، والتصدي لمباراته.

وقد مضت الأزمان ولم يكن أحد من الشعراء مجمعًا على تفضيله، وإنما هو رأي يراه قوم وينكره آخرون، كـما كان الخلاف حـول جرير والفرزدق، وأبى تمام والبحتري. ولو كان ثمة إجماع على شاعر بأنه أفضل الشعراء، واستمر ذلك إلى زمن المنصور لما كانت به حاجة إلى السؤال عن أشــعر الشعراء، وأن يجازف حماد الراوية بالجواب بأنه الأعشى، فيقول قولاً لم يقل به أحد. (بيان في تقديم الشعراء وتفضيلهم من أي وجه يكون)

٢٢- ويزيد الأمر بيانًا أنّا رأيناهم حين طُبُقُوا(١) الشعراء جعلوا امرأ القيس وزهيراً والنابغة والأعشى في طبقة، فـ أعلموا بذلك أنَّهم أكفاءٌ ونُظَراء، وأنَّ فضلاً إن كان لواحد منهم، فليس بالذي يُوئسُ الباقين من مُدَاناته (١) ، ومن أن يستطيعوا التعلق به والجري في ميدانه، ويمنعهم أن يدعوا لأنفسهم أو يُدُّعَى لهم أنهم سَاوَوهُ في كثيرً ثما قالوه أو دُنُوا منه، وأنَّهم جَرَوا إلى غايته أو كادوا، وإذًا كان هذا صورة الأمر، كان من العُمَى التعلُّقُ به، ومن الخُسَار الوقُوعُ في الشُّبهَة بسببه.

٣٣- وطريقة أُخْرَى في ذلك، وتقرير له على ترتيب آخر، وهو أنَّ الفَضل يَجبُّ والتقديم؛ إمَّا لمعنى غريب يَسْبق إليه الشَّاعر فيستخرجه، أو استعارة بعيدة يَفْطُنُ لَهَا، أو لطريقة في النَّظم يخترعها، ومُعلُّوم أن المُعَولُ (٣) في دليل الإعجاز على النظم، ومعلوم كذلك أنْ لَيس الدليلُ في المجيء بنَظم لم يوجد من قبلٍ فَـقَط، بل في ذلكَ منضمومًا إلى أن يَبِينُ (٤) ذلك «النظم» من سائر ما عُرف ويَعْرَف من ضروب «النظم»، وما يَعْرِفَ أهلُ العـصر من أنفسهم أنـهم يستطيـعونه، البَيْنُونَة (٥) التي لا يعرض معها شكُّ لواحد منهم أنه لا يستطيعه، ولا يهتدي لكُّنه (٦) أمره، حتى يكونوا في استشعبار اليأس من أن يقدروا على مثله، وما يَجْري مَنجُرَى المثل لَه، على صَورة واحدة، وحتَّى كأن قلوبهم في ذلك قد أُفْرغَت في قُــالِب واحد (٧) . وإذا كان الأمرُ كذلك لم يصح لهم تعلق بشأن امرى القيس حتى يدعوا أنه سبق إلى نظم بان من كُلُّ نَظْمَ عَرِفَ لَمَن قبله ولمن كان معه في زمانه، البّينُونَة التي ذكرناها أمرها.

وهُم إذا فعلوا ذلك، ورطوا أنفسهم في أعظم ما يكون من الجَهالة، من حيث إنه يَفْضِي (٨) بهم إلى أن يدّعوا على من كان في زمان السنبي عَالِيكُم من الشّعراء والبلغاء قاطبة الجهل بمقادير البلاغة، والنَّقْصان في علمها، ولأنفسهم الزيادة عليهم، وأن يكونوا قد استدركوا في نظم امرئ القيس من يتم لم تعلمها قريش والعرب قاطبة،

⁽١) طبقوا الشعراء: جعلوهم طبقات.

⁽٢) يونس الباقين من مداناته، ييأسون من القرب منه وملاحقته. (٣) المعول: المرجع والأصل. (٤) يين: يتميز .

⁽٦) لا يهندي لكنه أمره: حقيقة شأنه. (٥) بينونة نظم القرآن: فضله وتمييزه عن نظمهم .

⁽٧) أفرغت في قالب واحد: صار رأبهم واحدًا لا اختلاف بينهم .

⁽٨) يفضي بهم: يذهب بهم.

٣٢ - ويزيد الأمر وضوحًا وبيانًا أنهم حين جعلوا امرأ القيس وزهيرًا والنابغة والأعشى في طبقة واحدة، أنهم كانوا أكفاء متماثلين، وإذا كان لأحدهم فضل على الآخرين، لما دعاهم ذلك إلى اليأس من القرب منه والتعلق به حتى يبذوه أو يساووه أو يدنوا منه.

000

٣٣- وطريقة أخرى لبيان أن القرآن معجز، وأنهم لم يقدروا على معارضته.

فإثبات الفضل يكون إما لاختيار معنى غريب أو استعارة بعيدة، أو نظم دقيق، وإن كان معلومًا أن سبب الإعجاز هو النظم، وليس المراد الإتيان بنظم لم يوجد من قبل، بل أن يتميز النظم عن سائر ما عرف عند أهل العصر، ولا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا النظم.

وإذا كان الأمر كذلك فليس لهم في تقديم امرئ القيس شأن حتى يدعوا أنه سبق إلى نظم تميز عن نظم غيره ممن سبقه أو عاصره .

وإذا فعلوا ذلك فقد ورّطوا أنفسهم وحكموا عليها بالجهالة، فكيف يكون بين أيديهم شعر منظوم مساو في شرفه لنظم القرآن، ثم لا يحتجّون به على النبي عاليا الذي أتى بقرآن خارج عن طوق البشر في نظمه وتجاوز قدرتهم.

ومن يسلم بأن شعر امرئ القيس زاد في شرف نظمه على نظم من كان قبله، كما زاد القرآن في فضل نظمه على نظم من كان في عصر النبي عَلَيْسَكِيم. ذلك لما مَضَى آنفًا (١) من أنَّ مُحالاً أن يكون معهم وبين أيديهم نَظمٌ يعرفون من حاله أنه مُسَاو في الشرف نَظمَ القرآن، ثم لا يَذْكُرونه ولا يحتجُّون به على النبي عَيَّا ، وهو يُخبرهم أنَّ الذي أتَى به خارج عن طَوْق (٢) البشر ويَتَجَاوزُ قُواَهُم.

هَذَا، وَمَنْ يُسلّم بِأَنَّ امراً القيس زاد في البلاغة وَشَرَف النَّظم (٣) على نَظم من كان قبله، ما إذا اعْتَبر كان في مزيّة قَدْر القرآن على نَظم مَنْ كَان في عصر النبي على قبله، ما إذا اعْتَبر كان في مزيّة قدْر القرآن على نَظم مَنْ كان في عصر النبي على من أين لهم هذه المدعوى ؟ الشيء علموه هم في شعره، بان لهم عند قياسه إلى شعر من كان قبله كأبي دُوّاد والأفوه الأوديّ وغيرهما؟ أم لحبر أتاهم؟ فليُرونا مكانه، وليس لهم إلى ذلك سبيل (١) بَلْ قد أتى الخبر بما يُجهلهم في هذه المدعوى ويُكذّبهم، وهو الذي تقدّم من قول أبي الأسود وتفضيله أبا دُوّاد بحضرة أمير المؤمنين علي رضوان الله عليه، وبعد أن قال له: «قل يا أبا الأسود»، أفيكونُ أن يكونُوا قد عَرَفُوا لامرئ القيس المزيّة التي ذكروها، وكان فَضْلُه على من تقدّمه الفضل الذي قالوه، ثم يقول أمير المؤمنين لأبي الأسود: «قل» بحضرة العرب وبعقب الفضل الذي قالوه، ثم يقول أمير المؤمنين لأبي الأسود: «قل» بحضرة العرب وبعقب أن تشاجروا في أشعر النَّاس، فيؤخَّره ويقدم أبا دؤاد، ثم لا يَسْمَعُ نكيرًا (٥)، كالذي يجب فيمن قال الشيء الظاهر بُطلائه، وذهب منذهبًا لا مساغ (١) له! وليست تُذكرُ ما يُتَوهم أنْ يَسْتَروح إليه الغَوي (١)، ويُغالطَ به الجَاهل.

وإذا كانت السُّبُهة في أَصْلِ الدينِ، كانت كالداء الذي يُخشَى منه عَلَى الرُّوح، ويُخاف منه على النَّوجَةُ ويُخاف منه على النَّفس، فلا يُسْتَقَلَ قَلِيلُه، ولا يُتَهاون باليسير منه، ولا يُتَوهَمُ مكان حَرَكة له إلا اسْتَقْصِي (١) النَّظَرُ فيه، وأُعيد الكيُ (١٠) على نواحيه، وكالحيوان ذي السَّمِ يُعاد الحَجَرُ على رأسه، مادام يُرى به حسُّ وإن قَلَ.

والله وكبي وكبي العصمة، والمستول أن يَجْعَلَ كُلَّ ما نعيد ونبدئ فيه لوَجْهِه، مفَضْله وَمَنَّه.

⁽١) مضى آنفًا: سابقًا .

⁽٢) طوق البشر: قدرتهم .

⁽٤) سبيل: وجهة وطريق .

⁽٧) ذي لب: ذي عقل .

⁽٩) استقصى النظر فيه: نظر إليه من كل ناحية.

⁽٣) النظم: ترثيب الكلام بعضه مع بعض بطريقة مخصوصة .

⁽٥) نكيراً: دهشة وإنكاراً. (٦) لا مساغ له: لا يجوز له.

⁽٨) يستروح إليه الغوى: يرضي هنه الممعن في الضلال.

⁽١٠) الكيّ: علاج ودواء لكل علة .

من أين هذه الدعوى وما مصدرها؟ أفي شعره ما يميزه عمن سبقه كأبي دؤاد والأفوه الأودي وغيرهما؟ وإذا كان خبر أتاهم فليرونا مكانه وموضعه؛ بل الخبر جاء بما يكذبهم، حين سـأل أميرُ المؤمنين علي أبا الأسـود بحضرة العـرب بعد أن ارتفعت أصواتهم ومشاجراتهم في بيان مَن أشعر الناس، فيقدم أبا دؤاد على غيره من الشعراء، ثم لا يسمع نكيرًا من أحمد، وهم أدرى الناس بمضايق الشعر

وإذا كان شبهتهم في القرآن هي شبهة في أصل الدين، كان ذلك كالداء الذي يخشى منه على روح الإنسان، ومن ثم لا يجبوز التهاون في أمرها وإن قلت، كالأفعى تضرب على رأسها مادام فيها حس أو حركة.

(الشرطفي المعجزة أن تعم الأزمان كلها)

٢٤ - فاعلم أنَّهُم إذا ذكرُوا - في تعلُّقهم بالتَّوابِع، ومحاولتهم أن يَمْنَعُوا من الاستدلال، مع تسليم عَجْز العرب عن معارضة القرآن - مَنْ تَرَاخَى (١) زَمَانُه عن زَمَانُ النبيِّ عَلَيْ النبي عَلَم المَّارُطُ في نَقْض العادة أن يَعُمَّ الإزمانَ كلَّهَا، وأنْ يَظهر على مُدَّعي النبوة ما لم يستطعه مَمْلُوكٌ قَطَّ.

وأمّا تَقَدّمُ واحد من أهل العصر سائرَهم، فني معنى تقدّم واحد من أهل مصر من الأمصار غيرة ممّن يَضُمه وإياه ذلك المصر، لا فضل في ذلك بين الأمصار والأعصار (٢) إذا حقّقت ٢٦ النظر، إذ ليس بأكثر من أنَّ واحداً زاد على جماعة معدودين في نوع من الأنواع، فكان أعلَمهم أوْ أكْتَبهم أوْ أشْعَرَهُم، أو أحْدُقَهم في معدودين في نوع من الأنواع، فكان أعلَمهم أوْ أكْتَبهم أوْ أشْعَرَهُم، أو أحْدُقهم في المنعة، وأبهرَهم في عَمَل من الأعمال. وليس ذلك من الإعجاز في شيء، إنما المعجز ما علم أنه فوق تُوك البشر وتُدرهم، إن كان من جنس ما يقع التفاضلُ فيه من جهة القدر (٤)، أو فوق علومهم، إن كان من قبيل ما يتّفاضلُ النّاسُ فيه بالعلم والله أن استمداد الجاحظ وأشباه الجاحظ من كلام العرب والبُلغاء الذين تقدّمُوا في الأزمنة، وأنهم فَجَرُوا لهم ينابيع القولَ فاسْتقوا، ومَثْلُوا لهم مُشلاً في البلاغة فاحْتَذَوا (٥)، إذن لم يَبلُغ شأو ما بلغ ٢٠)، ولم يندر لهم من ضروع القول ما دَرَّ، لو أن طَباعًا لم تشرَبُ من مائهم، ولم تُغذَ بجناهم (١)، وتشمم الذي يكن حالهُم في الاكتساب منهم، والاستمداد من ثمار قرائحهم (٨)، وتشمم الذي يكن حالهُم في الاكتساب منهم، والاستمداد من ثمار قرائحهم (٨)، وتشمم الذي ناح من روائحهم، حال النحل التي تغتذي بأريج الأنوار (١)، وطيّب الأزهار، وتملأ أجوافها من تلك اللطائف ثم تَمُجُها أريًا وتقذفها مَاذيًا (١)، وطيّب الأزهار، وتملأ أجوافها من تلك اللطائف ثم تَمُجُها أريًا وتقذفها مَاذيًا (١)، ولكنان الجاحظ أجوافها من تلك اللطائف ثم تَمُجُها أريًا وتقذفها مَاذيًا (١)، ولكن لكان الجاحظ

⁽١) تراخى زمانه عن زمان النبي عَالِكُم : أي جاء بعده بفترة طويلة .

⁽٢) الأمصار والأعصار: الأمكنة والأزمنة . (٣) حققت النظر: أمعنت النظر .

 ⁽٤) جهة القدر: جمع قدرة وهي القوة .
(٥) فاحتذوا: احتذى الشيء: سار على مثاله .

⁽٦) شأوه: مداه . (٨) قرائحهم: عقولهم . (٨) قرائحهم: عقولهم .

⁽٩) أنوارهم: جمع نُور، أي ما خرج من نور الشجرة .

⁽١٠) الأرى: العسل، والماذي: أنقى أنواعه .

٢٤- وإذا تعلق زعـمـهم بمن جاء بعـد زمـان الرسـول عَلَيْكُ كالجـاحظ وأضرابه، كانوا في ذلك أجهل، ونقض زعـمهم أسهل؛ لأن شرط نقض العادة أن تعمُّ الأزمان كلها، وأن يظهر على يد المدعي ما لم يستطع أحــد أن يظهره على يديه هو.

وإذا تقدم واحد كالجاحظ على أهل عـصره، فلا فـضل في ذلك إذا أمعنت النظر؛ إذ ليس الأمر بأكثر من أن واحدًا زاد في جماعة معدودة، فكان أشهرهم أو أحذقهم في صنعة، ولـيس ذلك من الإعجاز في شيء؛ إذ إن الإعجاز هو ما يفوق قدرة البشر.

أما الجاحظ وغيـره فقـد شربوا من مـاء غيـرهـم من السابـقين، واستـقوا معلوماتهم من الأولين، وبلغوا ما بلغوا من حفظ كلام الأولين، ولولا ذلك لكانوا في عداد العامة، فحاله كحال النحل تغتذي بطيب الأزهار، ثم تقذفها عسلاً جنيًا حلو المذاق.

وغيرُ الجاحظ في عـداد عامَّة زمـانهم الذين لم يَرُوُوا، ولم يَحْفَظُوا، ولم يستنبعوا كلامَ الأوَّلين، من لَدُن (١) ظَهَرَ الشُّعْـر وكان الخطابة إلى وقتهم الـذي هم فيه، ولم يعرفُوا إلا ما يَتَكُلُّم به آباؤهم وإخوانُهم ومُساكنوهم في الدار والمَحلَّة(٢) ، أو كانوا لا يزيدون عليهم إن زادوا إلا بمقدار معلوم، ف من أعظم الجهل وأشد الغباوة، أن يَجْعَلَ تَقَدَّمُ أَحَدِهِم لأهل زمانه من باب نَقْض العادة، وأَنْ يُعَدَّ مَعَدَّ المُعْجز (٣).

٥٧- فَمَثُلُ هذه الطبقة إذَنْ مَع الصَّدْر الأُول، وقياس هؤلاء الخَلَف مع أُولئك السَّلَف، ما جرى بين ابن مَيَّادة وعقال، قال ابن ميادة:

فَجَّـرْنَا يَنَابِيعَ الكـَـلام وبَحـرَهُ وَمَا الشُّعْرُ إِلا شَعْرُ قَيْسَ وَخَنْدَف فقال عقال يجيبه:

ألا أبلغ الرَّمَاح نَقْض مَقَالة لَقَدْ خَرَقَ الْحَي اليَمَانُون قَبْلَهُمْ وقد علموا من بعدهم فتعلَّموا فللسَّابقين الفَضْل لا تُنكرُونَهُ

فأصبَح فيه ذُو الرواية يسبح وتَسولُ سواهُم كُلفَة وتَملُومُ وَتُملُعُ

بها خطسل الرّماح أو كسان يَمزَح بُحُورَ الكَلام تُستَقَى وَهْيَ طُفَّحُ وهُمْ أَعْرَبُوا هَذَا الكَلامَ وَأَوْضَحُوا ولَيْس لَخ لُوق عَلَيْهم تَبَجُّع (٥)

٣٦- وفي الذين قَدَّمتُ في أوَّل الجُرْء مُفْتَتَحَ هَذَه الرِّسَالة من قَـول خَالد بن صَفُوان: «كَيفُ نُجَارِيهم، وإنَّمَا نَحُكَيهم» (أَ) ، وما أَتْبَعَتُه من قول الجاحظ في شأن العرب، وفي أنَّ الاقتداءَ بهم والأخذَ منهم والتسليم لهم، وأنَّهُم لا يستطيع أشعر الناس وأرفعهم في البيان أن يُضاهيهم (٧) ، ويقول مثل الذي قَالُوه في جودة

⁽١) من لدن ظهر الشعر: من أول ما ظهر.

⁽٣) يعد معد المعجز: يجري مجرى الإعجاز.

⁽٥) خطل: فساد، طفح: طافحة، تبجح: تهجم.

⁽٦) كيف نجاريهم ونحن نحكيهم: أي كيف نوازيهم ونحن تتبعهم . (٧) يضاهيهم: يماثلهم.

⁽٢) المحلة: المكان، ومنزل القوم.

⁽٤) كلفة وتملح: تكلف وتظرف.

٢٥ ومثل ذلك مثل ما جرى بين ابن ميّادة وبين عقال من شعر: يقول ابن ميّادة: إن شعراءنا فجّروا ينابيع الكلام، وأصحاب الرواية سبحوا في نهرهم وينابيعهم، وشعرهم كُلْفة وتملّح.

فيجيبه عـقال: بأنَّ الفضل يرجع للسابقين ولا ينكره أحد، وليس لمخلوق أن يتبجح عليهم.

000

٣٦٠ يقول أصحاب البلاغة المشتغلون بها كيف نجاري الأقدمين، ونحن عالة عليهم نحكي أقوالهم ونسير على منوالهم.

والجاحظ يقول في شأن العرب، ليس لنا إلا أن نتبعهم ونأخذ منهم، ولا يستطيع أرفع الناس بيانًا أن يماثلهم، ويقول مثل أقوالهم في أصالة نحتهم وجودة سبكهم.

فإذا تغافل الرجل وادعى للجاحظ وأمشاله دعوى لم يذكرها الجاحظ لنفسه، أو زعم أنهم ظلموا أنفسهم وهضموا أعمالهم تعصبًا للعسرب، فأعطوهم أكثر مما ينبغي ووصفوهم بوصف هو أرفع من مكانتهم، لفتحوا بذلك بابًا من الجهالة والسخف ليس لنا أن نشغل أنفسنا به فضلاً عن الكلام عليه.

السُّبك والنُّحْت، وكثرة الماء والرُّونُق (١) ، إلا في اليّسير غنّي للعاقل وكفاية، اللُّهُم إلا أن يَتَجَاهلَ مُـتَجَاهلٌ فيدُّعي في الجاحظ وأمثاله فَضلاً لم يَدُّعُـوه لأنفسهم، أو يَزْعُم أَنَّهُم ضَامُوا أَنفُسهم (٢) تَعَصَّبًا للعرب، فتشاهَدُوا لَهَا بأكثر ممَّا عَرفُوا، وتواصفوها بِمَزيّة وبما لم يعلموا، فَيَـفْتَحَ بذلك بابًا من الرَّكَـاكَة (٣) وَالسُّخْف لا يُجاب عن مثله، ولا يُشتَغلُ بالإصغاء إليه، فضلاً عن الكلام عليه.

(قول الملحدة إن من البلغاء من يقدر على معارضة القرآن وتركوا ذلك خوفًا)

٢٧ - واعلم أنه إنْ خُيِّل إلى قوم من جُمهَّال الْمُلْحدَة (٤) أنَّه كَانَ في المتأخَّرين من البلغاء كالجاحظ وأشباه الجاحظ، مَنْ استطاع مُعارضَةَ القرآن فَتَـرَكَ خُوفًا، أو أنَّهُم فَعَلُوا ذَلكَ ثُمَّ أَخْفُوه، لم يُتَصَوّر تخيّلهم ذلك حتى يَقْتَحمُوا (٥)، هَذه الجَهَالة التي ذكرتُها، أعني أنْ يزعـموا أنَّهُم كَانُوا عند أنـفسـهم أفصح وأبلغ من بلغاء قريش وخطبائهم، وأنْ خُطيبَهم كان أخطبَ من قُسُ وسَحْبَان، وشاعـرَهم أشعرُ من امرئُ القيس، ومن كُلُّ شاعر كان في العرب، إلا أنَّهُم صَانَعُوا النَّاس (٦) ، فَمَنْعُوا أنفسهم الفضيلةَ وَنَحَلُوها (٧) العربَ، وذاكَ أنَّ مُحالاً أن يعتقدُوا فيهم، أعني في العرب، ما اعتقده النَّاسُ، وفي أنفسهم ما أَفْتَصَحُوا به من القُصور (٨) عن مُدَاناتهم، وشدَّة الانحطاط عنهم، ثُمَّ أن يستطيعوا ما لم يَسْتَطعه العرب، ويَكْمُلُوا مَا لَمْ يَكْمُلُوا له.

وَمَنْ هَذَا الذي يَشُّكُ في بُطْلان دَعْوَى مَن بَلَغَ بالمصلِّي غَايةً، وَقَدْ انْقَطع السَّابق (٩) ، وزَعم في النَّاقص الحذق (١٠) أنَّه استَـقَلَ بشيء عَيَّ به (١١) المشهـودُ له بالحــذُق والتقــدُم؟ هذا مــا لا يدور في خَلَد (١٢١) ، ولا تنعـقد له صُــورَة في وَهُم،

⁽١) السبك والنحت والرونق، كلها أوصاف للكلام المتلاثم الجيد. (٢) ضاموا أنفسهم: هضموها .

⁽٣) الركاكة: التهافت والسقوط.

⁽٥) اقتحم الشيء: دخله عنوة .

⁽٧) تحلوها العرب: خصوا بها العرب.

⁽٩) السابق: المتقدم.

⁽١١) عيّ بالشيء: ضعف عنه ولم يحتمله .

⁽٤) الملحدة: الذين خرجوا عن الدين .

⁽٦) صانعوا الناس: مالئوهم وجاملوهم.

⁽٨) القصور عن الشيء: عدم الوصول إليه .

⁽١٠) الحذق: المهارة.

⁽١٣) يدور في خلده: يجري في ذهنه .

٣٧- وإذا خيل لبعض الجهال أنه كان من المتأخرين كالجاحظ وأضرابه من استطاعوا معارضة القرآن لروعة بيانهم، إلا أنهم تركوا ذلك خوفًا، أو عارضوه ثم أخفوه، وكأنهم يزعمون أنه كان بينهم من الناس من هو أفسصح وأبلغ من خطباء العرب وشعرائهــم المبرزين كامرئ القيس، وقسّ بن ساعــدة، وسحبان وائل، إلا أنهم تظاهروا بغير ذلك ومنعوا أنفسهم فضيلة التقدم ومنحوها للعرب.

فمن المحال أن يخموا بالمزيّة ويمنعوا أنفسهم عنها لقصورهم، ثم يزعمون أنهم يستطيعون ما لم يستطعه العرب، ويكملوا ما نقص منهم، كفرسين في حلبة السباق أحدهما سابق، والآخر لاحق، فـهل يجوز لنا أن نزعم أن للاحق الأقل كفاءة ميزة وحذقًا لا يوجدان في السابق؟!



فصل في فن آخر من السؤال

٢٨ - وهو أن يقولوا: إنّا قَدْ علمنا من عادات الناس وطَبَائعهم أنّ الواحد منهم تُواتيه (١) العبارة، ويُطيعه اللّفظُ في صنف من المعاني، ثُمَّ يمتنع عليه مثلُ تلك العبارة وذاك اللفظ في صنف آخر.

فقد يكون الرجل، كما لا يَخْفَى، في المديح أشعر منه في المراثي، وفي الغَزَل واللَّهُ و والصيد أَنْفَذَ منه في الحكم والآداب، وتراه يَسْتطيع في الأوصاف والتشبيهات ما لا يستطيع مثلة في سائر (٢) المعاني، وترى الكاتب وهو في الإخوانيات أبلغ منه في السلطانيات، وبالعكس. هذا أمر معروف ظاهر لا يشتبه (٣). وإذا كان كذلك، فلعل العَجْزُ الذي ظهر فيهم عن مُعارضة القرآن، لم يظهر لأنهم لا يستطيعون مِثْل ذلك النَّظم، ولكن لأنهم لا يستطيعون مِثْل ذلك النَّظم، ولكن النهم لا يستطيعونة في مِثْل مَاني القرآن.

(١) تواتيه العبارة: تكون في متناول يديه .

⁽٢) سائر المعانى: بقية المعاني.

⁽٣) لا يشتبه: لا يغمض ولا يخفي على أحد. (٤) أستقصيه: أحيط به علماً.

⁽٦) في حيّز المكن: في نطاقه.

⁽a) الحسم: القطع . (٧) ها الدر مالن ا

⁽٧) مثار النقع: الغبار الذي تثيره سنابك الخيل في المعركة، تهاوى: تتساقط.

⁽٨) نظائره: أمثاله .

٣٨- يقولون: إن من عادة الناس أن الواحد منهم تواتيه العبارة وتسلس له في فن، فإذا دخل في فن آخر استعصت عليه وحرنت معه، فقد يكون متفوقًا في الغزل، فإذا دخل في المراثبي لم يبلغ فيه المقدار الذي بلغه في الغزل. وقد يكون سُبَّاقًا في الفخر، وهو أشعر منه في المراثي وهكذا .

وكذلك الأمر في الكتابة لا تختلف عن الشعر، فقد يكون في الاجتماعيات أفضل منه في الرسميات إلى غير ذلك، فإذا ظهر منهم عجز عن معارضة القرآن، فليس لأنهم لا يستطيعون مثل ذلك النظم؛ بل لأنهم لا يستطيعونه في مثل معاني القرآن.

أو يقولون: إنه لا يصح المطالبة إلا بما يدخل في حيّز الممكن، فإذا سبق شاعر إلى معـنى من المعاني وارتفع فيه، بحيث لا يمكن لشاعـر آخر الوصول إلى معناه، فيقضي للأول بأنه غلب على هذا المعنى واستبدّ به، كبيت بشار مثلاً:

كَأَنَّ مُثَارَ النقع فَوْقَ رؤوسنا وأسيَافَنَا لَيْـلٌ تَهَـاوَى كَـواكِبُـهُ

فهذا المعنى غلب عليه بشار واحتكره لنفسه حتى لم يستطع أحد من الشعراء أن يقترب منه.

۷۸

وَخَلاَ الذَّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَارِحِ غَرِدًا كَفَعْلَ الشَّارِبِ الْتَرَقِّمِ هَزِجًا يَحُلَكُ وَاللَّهُ وَرَاعَهُ بِذَرَاعِهُ قَدْحَ الْمُكَبِّ عَلَى الزَّنَادِ الأَجْذَمِ (١) قَالَ: فَلَو أَنَّ امرأَ القيس عَرَضَ لَذْهَب عَنْترة في هذا الافتضح».

وليس ذاك لأن بَشَارًا وَعَنْتَرة قَدْ أُونيا في علم النَّظم جملة ما لم يُؤْت غَيْرُهما، ولكن لأنه إذا كان في مكان خَبِيءٌ فَعَنْر عليه إنْسَانٌ وأخذه، لم يَبْق لغيره مرام (٢) في ذلك المكان، وإذا لم يَكُنْ في الصَّدَفَة إلاَّ جَوْهَرةٌ واحدة، فَعَمَدَ إليها عَامَدٌ فَشَقَهَا عَنْهَا، استحال أن يَسْتَام (٣) هو أو غَيْرُهُ إخراج جَوْهَرة أُخْرَى مِنْ تلك الصَّدَفَة. وما هذا سبيله في الشَّعْرِ كثيرٌ لا يَخْفَى على مَنْ مَارس هذَا الشَّان، فَمِن البَيِّن في ذلك القطامي:

مُواقِع المَاءِ مِنْ ذِي الغُلَّةِ الصَّادِي (٤)

وبالشباب شفيعا أيها الرجل

غيسر أن الشباب ليس يدوم

فَهُن يَنْبِ ذَنَ مِن قُول يُصِبْ نِهِ وقول ابن حازم:

كَفَاكَ بِالشَّيْبِ ذَنْبًا عِنْد غَانِية وقول عبد الرحمن بن حسان: لَهُ تَفْتُهَا شُهُ النَّهَا، بشَهُ عُهُ النَّهَا، بشَهُ عُهُ

لَمْ تَفْتُهَا شَمْسُ النَّهَارِ بِشَيْءٍ وقول البحتري:

عَرِيقُونَ فِي الْإِفْضَالِ يُؤْتَنَفُ النَّدَى لِنَاشِئِهِم مِنْ حَيْثُ يُؤْتَنَفُ العُمْرُ (٥) لا ينظر في هذا وأشباهه عارف إلا علَم أنّه لا يُوجد في المعنى الذي يُرَى مثله، وأن الأمر قد بَلَغَ غايته، وإنْ لم يَبقَ للطَّالِب مَطْلَبٌ.

000

⁽١) برح المكان: غادره، المترنم: الذي يتغنى بصوته، هزجًا: طربًا، المكبّ: المنحنى على الزناد، الأجذم: المقطوع.

⁽٢) مرام: قصد وهدف. (٣) يستام: يطلب. (٤) الغلة: العطش الشديد.

⁽٥) لهم جذور في الفضل وقد عرفوا بالكرم منذ استقبلوا الحياة .

وقــالوا ذلك أيضًا في بيــتى عنتــرة وهو يصف الذباب: الو أن امرأ القــيس عرض لمذهب عنتـرة في هذا لافتضح، لـيس ذلك لأن بشارًا وعنترة قـد أوتيا في علم النظم ما لم يؤت غيرهما، بل هما كشيء خفي في مكان فعثر عليه إنسان فأخذه، وشبه ذلك بالصدفة التي ليس بها إلا جوهرة واحدة، فعمد إليها رجل وأخذها، استحال على رجل آخر أن يأخذ منها جوهرة ثانية، إذ لا يوجد سوى واحدة التي أخذها الأول، ثم أصبحت الصدفة فارغة، وهذا شأن الشعر الذي لا يخفي على أحد.

ويذكر عـبد القاهر دليلاً على قـوله وصوابه أبياتًا من الشـعر للقطامي، وابن حازم الباهلي، وعبـد الرحمن بن حسان، والبحتري، ويعـقب على ذلك فيقول: إن معاني هذه الأبيات لا يوجد مثلها في شعر الشعراء؛ لأن الأمر فيها قد بلغ غايته ولم يبق لطالب مطلب فوق ذلك أو مداناته .

(ماجاءعلى هذا الوجه من الكلام المنثور)

٢٩ – وكذلك السبيل في المنثور من الكلام، فإنك تجد فيه مَتَى شئت فصولاً تعلَم أن لن يُستَطَاع في معانيها مثلُها، فمما لا يخفى أنَّه كذلك قول أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضوان الله عَليه: «قيمة كُلِّ امرِي مَا يُحْسِنُه»، وقول الحسن رحمة الله عليه:

«مَا رَأَيْتُ يَقِينًا لاشكَّ فيه أَشْبَهُ بِشَكَّ لا يقين فيه من الموت»، ولن تَعْدَم ذلك إذا تَأَمَّلْت كلام البُلغاء ونظرت في الرسائل.

وَمِنْ أَخْصَ شَيء بِأَنْ يُطْلَب ذلك فيه، الكتب المبتدأة الموضوعة في العلوم المستخرجة، فإنّا نجد أربابها (١) قد سَبقُوا في فُصُول منها إلى ضرب من اللَّفْظ والنَّظم، أَعْيا (٢) مَن بَعْدَهم أَنْ يَطْلبُوا مثله، أو يجيئوا بِشبيه له، فجعلوا لا يزيدون على أن يَحْفَظُوا تلك الفصول على وجوهها، ويؤدوا ألفاظهم فيها على نظامها وكما هي.

وذلك ما كان مثل قول سيبويه في أول الكتاب (٣):

«وأما الفعل فأمثلة أُخذَت من لَفُظ أَحْدَاث الأسماء، وبُنيت لما مسضى، وما يكون ولم يَقَعُ، وما هو كَائن لَم يَنْقَطع».

- لا نعلم أحدًا أتَى في معنى هذا الكلام بما يُوازِنه، أو يُدانيه، أو يقع قريبًا منه، ولا يَقع في الوَهم أيضًا أنَّ ذَلِكَ يُسْتَطَاع، أَفَلا تَرَى أنَّهُ إِنَّمَا جَاءَ في مَعْنَاهُ قولهم:

«والفعل يَنْقَسِمُ بِأَقْسَامُ الزَّمَانِ: ماض وحاضِرٌ ومستقبلٌ»، وليس يَخْفَى ضَعْفُ هَذَا في جَنْبه وقصُورُه عنه، ومثله قوله:

«كَأَنَّهُمْ يُقَدِّمُونَ الذي بَيَانُهُ أَهُمْ لَهُم، وهُمْ بِشَأْنِهِ أَعْنَى، وإنْ كَانَا جَمِيعًا يُهِمّانهم ويَعْنيَانهم».

999

⁽١) أربابها: أصحابها.

⁽٢) أعيا من يعدهم: أجهدهم.

⁽٣) الكتاب: كتاب سيبوية بهذا الاسم.

٣٩- وما يجسري في الشعر من قول لا يدانيه في معناه شاعر آخس، يجري مثله في النثر، كقول على ظلطت «قيمة كل امرئ ما يحسنه»، وغير ذلك من النثر الذي تفرد بمعناه وامتاز على غيره.

وأيضًا العلوم المبتدأة المتسنبطة بقريحة الذهن ولم يسبق في استخراجها أحد، حتى إنها أعيت من حاول أن يجيء بمثلها في دقة التعبير عنها، كقول سيبويه في تقسيم الفعل إلى ما مضى، وما يكون، وما لم يقع، وما هو كائن، وكقوله في التقديم:

كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم بشأنه أعنى، وإن كانا جميعًا يهمّانهم ويَعنيانهم.

٣٠- وإذا كان الأمر كذلك لم يمتنع أن يكون سبيل لفظ القرآن و نَظمه هذا السبيل، وأن يكون عَجْزَهم عن أن يأتوا في طريق العَجْز عمًّا ذكرنا ومثَّلنا، فهذا جُملَة ما يجيء لهم في هذا الضرب من التعلُّق قد استوفيتُه، وإذ قد عرفتَه، فاسمع الجواب عنه، فإنَّه يُسْقطه عَنْكَ دَفْعَةً، ويَحْسمه عَنْك حَسْمًا (١).

000

(تفصيل القول في معنى التحدي)

٣١- واعلم أنهم في هذا كرام قد أضل الهدف، وبان قد زال عن القاعدة، وذَاكَ أنّه سؤال لا يَتَجه حتّى يُقدر أن التّحدي كان إلى أنْ يُعبّرُوا عَنْ مَعاني القرآن أنفُسها وبأعْ بانها بلَفْظ يُشْبه نَفْظَه، ونَظم يُوازي نَظْمَه، وهذا تقدير باطل "، فإن التَحدي كان إلى أن يجيئوا في أي مَعنى شَاءُوا من المعاني بنَظم يبلُغ نَظم القُرآن في الشّرَف أو يَقْرُب منه، يدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْر سُورٍ مِتْله مَفْتَرَيات ﴾ إمود: ١٣] ، أي مثله في النظم، وليكن المعنى مُفْتَرَى كما قُلْتُم، فلا إلى المعنى دُعيتُم، ولكن إلى النَظم، وإذا كان كذلك، كان بينًا أنّه بناءٌ على غير أساس، ورمْيٌ من غير مَرْمًى؛ لأنّه قياس ما امتنعت فيه المعارضة من جهة وفي شيء مخصوص، على ما امتنعت معارضَتَه من الجهات كلّها وفي الأشياء أجمعها.

فلو كان إذ سَبَقَ الخليلُ وسيبويه في معاني النَّحو إلى ما سَبقًا إليه من اللَّفظ والنَّظم، لم يسبق الجاحظُ في معانيه التي وضع كُتُبه لها إلى ما يُوازي ذلك ويُضاهيه، أو كان بَشَّارٌ إذ سبق في معناه إلى ما سبق إليه، لم يُوجد مثل نظمه فيه شاعر في شيء من المعاني – لكان له في ذلك متعلَّقٌ، فأما وليس من نَظم يقال: "إنه لم يسبق إليه" في معنى، إلا ويُوجَد أمثالُه أو خيرٌ منه في معان أخر، فَمن أشد المُحال وأَيْنه الاعتراض به.

واعْلَمَ أَنَّا لَو سَلَّمْنَا لَهُم الَّذِي ظَنُّوهُ عَلَى بُطْلانِه، مِنْ أَنْ التَّحَـدِي كَانَ إِلَى أَنْ يُعَبَّرُ عِن أَنْفُسِ مَعَانِي القُرآن بِمَا يُشْبِه لَفْظه و نَظمه، لَم نَعْدَم الحجَاجَ مَعَهم، وأَنْ يَكُون لَنَا عَلَهُم كَلَامٌ فَى الذي تَعَلَّقُوا بِهِ، وَدَفعُ لهم عنه، إلا أن العلَماء آثروا أنْ يكونَ الجوابُ عَلَيْهم كَلَامٌ فَى الذي تَعَلّقُوا بِهِ، وَدَفعُ لهم عنه، إلا أن العلَماء آثروا أنْ يكونَ الجوابُ

⁽١) يحسمه حسمًا --- الكلاء - نهائيًا

٣٠ - وإذا كان الأمر كذلك في الشعر وفي النشر كان مثله في القرآن، فعجزهم عن معارضته والإتيان بمثله، كعجزهم عن أبيات معروفة في الشعر كالتي مثلنا بها لبشار وغيره، وفي النثر كما مثلنا بقول عليّ رضي الله عنه وغيره.

وإذ قلد عرفت ما قالوه في هذا الزعم، وأدركت الجواب عنه الذي يُسقط ادعاءهم ويفحم زعمهم.

600

٣١ – قدر المعارضون أن التحدي كان بأن يعبروا عن معاني القرآن بأعيانها، وبلفظ يشبه لفظه، وهذا باطل؛ لأن التحدي لم يكن في الإتيان بمعنى في مثل معنى القرآن، ولكن كان بالإتيان بنظم مثل نظمه، في أيُّ معنى شاءوا. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلُهِ مَفْتَرِيَاتٍ ﴾ أي مفترى في أي معنى تريدون، فكان شأنهم شأن من يرمي بسهم فيضل الهدف، أو يبني على غير أساس، وقاسوا الشيء الذي يمتنع بنظمه، على الشيء الذي يمتنع بمعناه، فكان قياسهم على بطلان وفساد.

وإذا حكمنا للخليل وسيبويه في معاني النحو بالسبق في لفظه ونظمه، حكمنا حينتذ بأن الجاحظ لم يسبق في معانيه إلى ما يضاهي ما جاء به الخليل وسيبويه.

وكذلك إذا كان بشار قد أتى في بيته المشهور عن المعركة بالمعنى الذي لم يسبق إليه، وكان غيره من الشعراء لا يدانوه في شيء من معناه، لكان لهم العذر في ذلك، أما وأن الأمر لا يتعلق بالمعنى، وإنما يتعلق بالنظم وأنه لم يسبق إليه في معنى، إلا ويوجد مثـل نظمه أو خير منه، في معناه أو في معـان أخر، فهذا من أشد المحال وأبعده عن الاعتراض.

ولو سلمنا جـدلاً أن التحـدي وقع في مـعاني القـرآن بما يشـبهـ في اللفظ والنظم، لما عـدمنا الحجة علـيهم، ولكن العلمـاء فضلوا أن يكون التـحدي على الوجه الذي ذكرنا بأن يأتوا بأي معنى، ولكن في نظم القرآن تسهيلاً عليهم، حتى نحسم الشبهة ونقطع الحجة، فمن ضعف الرأي أن يطول علاج المريض ومعك الدواء الذي يشفيه. من الوجه الذي ذكرت، إذ كان وَفْقَ ما نُصَّ عليه في التنزيل، وكانَ فيه سدُّ الباب وحَسْمُ الشُّبُه جُمْلَةً، ومن ضَعْف الرَّاي أَنْ تَسْلُكَ طَرِيقًا يَغْمُضُ، وَقَدْ وَجُدت السَّنَنَ اللاحب (١) ، وَأَنْ تُطَاولَ المريضَ في علاجك، ومعك الدواءُ الذي يَشْفي من كَتَب (٢) ، وأنْ تُرْخي من خناق (٣) الخصم، وفي قُدْرتك ألاَّ يملك نَفَسًا، ولا يستطيع نُطقًا.

000

٣٢- ثُمَّ إِنْ أَردت أَن تَكلِّمهم على تسليم ذلك، فالطريق فيه أن يُقال لهم على أوّل كلامهم حيث قالوا: ﴿إِنَّا رَأَيْنَا الرَجلَ يَكُونُ فِي نَوعٍ أَشْعَرَ، وعلى جَوْدَة اللفظ والنظم أقدر منه في غيره الله ينبغي أن تعلموا أوّلَ شيء أنّكم حرّفتُم كلام النّاس في هذا عن موضعه، فإنّا إذا تَأَمَّلْنَا الحالَ في تقليمهم الشَّاعرَ في فَنَّ من الفنون، وجدناهم قد فَعَلُوا ذلك عَلَى مَعْنَى أَنّه قَدْ خَرَج (أ) في مَعَانِي ذلك الفنِّ مَا لم يُخرِّجُهُ غيره، واتسَع لما لم يتسع له مَنْ سواه، فإذا قالوا: «هو أنسب الناس»، فالمعنى أنه قد فطنَ في مَعاني الغزل، ومَا يدلُ على شدة الوَجْد (٥ وَفَرْط الحب والهيّمان لما لم يَفْطُن له غيره، وكذَلك إذا قالوا: «هو أنسب الناس»، فالمعنى أنه قد له غيره، وكذَلك إذا قالوا: «أمدح، أو أَهْجَى»، فالمعنى أنّه قد اهتكى في معاني الزّيْن والشّين وفي التّحسين والتّه بجين (٢) إلى مَا ليم يَهْتَد إليه نظراؤه (٧)، ولو كَانُوا في اللفظ والنّظم يذهبون، لكان محالاً أن يقولوا: «هو أنسب»؛ لأن ذلك في صفة اللفظ والنظم مُحالٌ، ومَنْ دَذَا الَّذي يَشُكَ أَنْ لَمْ يَكُن قُولُ جرير:

أَلَسْتُ مُ خَيْر مَنْ رَكِبَ المَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ الطُّونَ رَاحِ (^) أَلْسَتُ مُ خَيْر مَن وَال ذلك، من أجْلِ لفظه ونظمه، وأنَّ ذلك كان من أجل معناه؟ هذا ما لا مَعْنَى لزيادة القول فيه.

000

(١) السنن اللاحب: الطريق الواضح .

(٣) خناق الخصم: العنان والحبل، أي ترخى له الأمر وتسهله عليه.

(٤) خُرَّج في معانى ذلك: أتى في معانيه.

(٦) التهجين: التقبيح .

(٧) نظراؤه: أمثاله .

(٥) الوجد: الحب والهيام.

(٨) المطايا: الإبل، راح: اليد يصفهم بالكرم الشديد.

٣٢- ونعود إلى ما قالوه مرة أخرى: إن الرجل قد يكون في نوع أشعر، وفي اللفظ والنظم أجود منه في نوع آخر.

وإذا تأملنا ذلك وجدنا أن الشاعر قد أتى في معانى ذلك الفن ما لم يأت به غيره، فإذا قالوا: فلان أنسب الناس أو أمدحهم أو أهجاهم، بمعنى أنه وجد في معاني الغزل من الوجد ما لم يجده غيره، واهتدى في معاني المدح والهجاء ما لم يهتد إليه نظراؤه. فهم يريدون المعنى ويستحيل أن يكون مرادهم النظم، إذ لو كان كذلك، أي أنه أنسب أو أمدح أو أهجى؛ لما كان من صفات اللفظ والنظم.

وقول جرير:

وأنسدى العالمين بطسون راح أَلَسْتُ خَيْر مَن رَكبَ الْمَطَايَا

لا يشك أحد بأنه أمدح بيت قالته العرب ليس لمعناه؛ بل لما فيه من جمال لفظ ونظم. ٣٣- فإن قالوا: هُمُ، وإنْ كَانُوا قَدُ أَرَادُوا المعنى في قولهم: «هَذَا أَمْدَحُ، وذَاكَ أَهْجَى، وَهَذَا أَنْسَبُ، وَذَاكَ أَوْصَفُ فَإِنَّه لَنْ تَتَسِع المَعَاني حَتَّى تَتَسع الألفاظ، ولَنْ تَقَع مَواقعَها المؤثرة حتى يُحْسنُ النظم، وإذا كان كذلك، فموضعنا منه بحاله، ثُمَّ لَيْسَ بِمُنْكُر ولا مَجْهُول أَنْ يَكُون لفظ الشَّاعِر ونظمه إذا تَعَاطَى المدح، أحسن وأفضلَ منهما إذا هو هَجَا أو نَسَب.

قيل: إنَّا نَدَع النِّزَاع في هَذَا ونسلِّمه لكم، فأخبرونا عن معانى القرآن، أهي صنف واحد أم أصناف وإن قلتم: «صنف واحد الله تجاهلتم، فقد علمنا الحُجَج والبراهين، والحِكم والآداب، والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والوصف والتشبيه والأمثال، وذكر الأمم والقرون واقتصاص (١) أحوالهم، والنَّبال عمّا جرى بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام وما لا يُحصى ولا يُعدّ.

وإن قلتم: «هي أصناف»، كما لأبد منه.

قبل لكم: فقد كان ينبغي لشعراء العرب وبلغائها أن يَعمد كل منهم إلى الصنف الذي تنفُذُ قريحتُه فيه فيعارضه، وأن يجعلوا الأمر في ذلك قسمة بينهم (٣). وفي هذا كفاية لمَنْ عَقَلَ.

000

٣٤- وأمّا قولهم: ﴿إِنَّهُ قَدْ يكون أن يَسْبِقَ الشَّاعِرُ فِي المّغنَى إلى ضَرَّبٍ من اللّفظ والنّظم، يعلَم أنّه لا يجيء في ذلك المعنى أبدا إلى ما هو مُنحط عنه (٤) - فإنّه ينبغي أن يُقال لهم: قد سلّمنا أنّ الأمر كما قُلتُم وعَلمتُم، أفعلمتم شاعرا أو غير شاعر عَمدَ إلى ما لا يُحْصَى كثرةً من المعاني، فتأتّى له في جميعها لفظ أو نَظم أعيا (٥) النّاس أن يستطيعوا مثله، أو يَجدوه لمن تقدّمهم ؟ أم ذلك شيء يتّفق للشّاعر، من كل مئة بيت يقولها، في بيت؟ ولعل غير الشّاعر على قياس (١) ذلك. وإذا كأن لابد من الاعتراف بالثّاني من الأمرين، وهو أن لا يكون إلا نَادرًا وفي القليل، فقد ثبت إعجاز القرآن بنفس ما رامُوا به دَفْعَه (٧) ، من حيث كان النظم الذي لا يُقْدَرُ على مثله قد جاء منه فيما لا يُحْصَى كثرة من المعانى.

⁽١) اقتصاص أحوالهم: تبعها .

⁽٣) قسمة بينهم: يقتسمونه فيما بينهم.

⁽٥) أعيا الناس: أجهدهم.

⁽٧) راموا دفعه: قصدوا تنقيصه .

⁽٢) النبأ: الخير إذا كان هامًا.

⁽٤) منحط عنه: أقل منه .

⁽٦) قاس الشيء على غيره: قدره على مثاله .

٣٣- إن قالوا: هم وإن أرادوا المعنى في قـولهم: «هذا أنسب أو أمدح وذاك أوصف أو أهجى، إلا أن المعاني لا تتكشّف إلا باللفظ، ولا تؤثّر إلا بـالنظم، فالأمر لا يخرج عما قلناه من أن يكون الإعجاز بالنظم واللفظ.

ومن المعلوم أن الشاعر قد يظهر فضله في نوع من الشعر دون نوع آخر، فقد يكون مبرزًا في الهجاء ساقطًا في المدح وهكذا، أو عاليًا في الغزل منحدرًا في

قلنا: أخـبرونا عن معـاني القرآن أهي صنف واحـد أم أصناف متـعددة، إن كانت صنفًا واحدًا، كذبتم وتجاهلتم الواقع؛ فالقرآن أصناف كثيرة: فيه الحكمة والموعظة، والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والتشبيه والتمثيل، وغير ذلك مما يجده قارئ القرآن أو من يستمع إليه.

وإن كان القرآن أصنافًا متعددة، فلماذا لا تعمدون إلى بلغائكم في كل من بدّ في فن من الفنون، وتجعلون الأمر قــسمة بينهم حتى يعارضــوا القرآن بمثل نظمه، ولكنهم عجزوا جـميعًا عن ذلك مما يؤكـد إعجاز القرآن، وعدم مـجاراة بلغائكم لأسلوبه ونظمه .

٣٤- وإذا كان الشاعـر يلجأ في شعره إلى معنى لم يصل إليـه أحد قبله ولم يدانيه أحــد في لفظه ونظمه، أيكون ذلك في جــميع قصــائده، وفي كل بيت من أبياته الشعريــة أم أن رفعته تكون في بيت من مائة بيت، أو في قصــيدة من مثات القصائد؟ فلابد من الاعتراف بأن ذلك يكون في النادر والقليل من شعره.

أما إعــجاز القرآن فـقد جـاء في كل سوره؛ بل في جمـيع آياته، وليس في سورة دون سورة، ولا في آية خلاف آية، مما يجعلكـم تسلمون بإعجاز القرآن كله دفعة واحدة.

٣٥- وهكذا القول في الفصول التي ذكروا أنَّه لم يُوجَدُ أمثالُهَا في معانيها؛ لأنها لا تستمرُّ ولا تكثَّرُ، ولكنك تُجدُّهَا كالفُصوص الشمينة والوسَائط النَّفيسة وأَفْرَاد الجواهر (١) ، تَعُدُّ كثيرًا حتى تَرَى واحدًا، فهذا وشبهه من القول في دَفْعهم-مع تسليم ما ظُنُوه من أنَّ التحدِّي كان إلى أنْ يعبِّر عن معاني القرآن أنْفُسها مُمكن " غَيْرَ مَتَعَذَّر، إلا أنَّ الأولَى أنْ يَلْزُم الجَدَدُ الظَّاهِرْ (٢) وأن لا يُجَابُوا إلى ما قالوه من أنَّ التحدِّي كان إلى أن يَوْتَى في أنْفُس معانيه بنظم ولفظ يَشَابهه ويَساويه، ويَجْزُم لهم القولُ بأنهم تُحَدُوا إلى أن يجيئوا في أيُّ مُعْنَى أرادوا مُطْلَقًا غير مُقيّد، ومُوسعًا عليهم غير مضيّق، بما يشبه نظم القرآن أو يَقْرُب من ذلك.

٣٦- ومَما يُحيل أنْ يكون التَحَدِّي قُدْ كان إلى ما ذكروه ومع الشرط الذي توهَّمُوه، أنَّ العربَ قَدْ كَانَتْ تعرفُ «المُعارَضَةَ» (٣) ما هي وما شـرطها، فلو كان النبي عَلِيْ قَلْ عَدَلَ بِهِم في تحدُّيه لهم إلى ما لا يُطَالَبُ بمثله، لكان ينبغي أن يقولوا: «إنك قد ظلمـتنَّا، وشرطتَ في معارضـة الذي جئتَ به ما لا يُشْنَـرط، أو مَا لَيْسَ بواجب أن يُشْتَـرَط، وهو أن يكون النَّظم الذي نُعارض به في أنفس مَعاني هَذَا اللَّذي تُحدَّبتَ إلى معارضته، فدعْ عَنَّا هَذَا الشَّرْطَ، ثم اطلُب فـإنَّا نُريك حينئذ ممَّا قَالَهُ الأُولُون وقَلْنَاهُ وما نقوله في المستأنَّف، ما يُوازي نَظمَ ما جئتَ به في الشَرف والفضل ويَضَاهيه، ولا يَقْصَر عنه». وفي هذا كفايةٌ لَمَنْ كَانَت لَهُ أَذُنَّ تَعي (٤) ، وَقَلْب يَعْقلُ.

قَد تَمَ الذي أردتُه في جواب سؤالهم، وبانَ بَطلانه بيانًا لا يبقى معه إن شاءً اللهُ شكَّ لناظر، إذا هو نَصَحَ نفسه وأذْكَى (٥) حسَّه، ونَظَرَ نَظَرَ مَنْ يُريد الدِّين، ويرجو مـمَّا عند الله، ويريد فيما يقولُ ويعملُ وَجُهُ تَقَـدُسُ اسمه، وإليه تعـالي نُرْغُبُ في أن يجعلُنا مُمَّن هذه صفته في كل ما نُنتَحيه ونَنْظُر فيه، بفَضْله وَمَنَّه ورحمته، إنَّه عَلَى مَا يَشَاءُ قدير. الحَمْدُ لله حَقّ حَمْده، والصلاة على رسوله محمد وآله من بعده.

⁽١) أفراد الجواهر: أعيان الجواهر وأغلاها قيمة .

⁽٣) المعارضة: المانضة في الكلاء

⁽٥) أذكى حــ ــ حو

⁽٢) الجدد الظاهر: الطربق الواضح.

⁽٤) أذر تعي: تسمع وتحمط

٣٥- وهكذا القول في النثر، تحصى كثيرًا من الفقرات، ثم لا تجد إلا واحدة تتبوأ المنزلة السامية كمن يعثر على جوهرة يتيمة بين ركام من الأتربة.

ونحن نسلم لهم بهذا القول مع التـسليم بظنهم أن التحدي إنما وقع في أنفس معانى القرآن.

ولكن لماذا نركب الصعب ونحيد عن الطريق الواضح: وهو أن التحدي إنما كان في أي معنى يشاءون، ولكن بــلفظ ونظم مماثل للقرآن، وليس بالإتيان بأنفُس المعاني.

000

٣٦– ومما يجعل أمر التحــدي بأنفس معانى القرآن مستحــيلاً وغير وارد، أن العرب كانت تعرف المعارضة وشروطها، ولو كان التحدي بنفس معنى القرآن لحقّ لهم أن يطلبوا من الرسول عَايِسِهُم تنحية هذا الشرط، وقالوا: دع عنّا هذا الشرط، ثم اطلب منا فنريك مـن أقوال السـابقين واللاحقـين ما يوازي نظم القـرآن الذي تدعي إعجازه، ولنا في ذلك فضل وشرف يضاهيه ولا يقل عنه.

والحمد لله والصلاة على رسوله محمد وآله أجمعين.

بنيرانه الخزالج يزع

فصل

فيالذي يلزم القائلين بالصرفة

سلام القول بها ابتدأه على توه على الظنّ من حديث القول بالصرّ فق (١) ، أن يكون الذي ابتدأ القول بها ابتدأه على توه على من التحدي كان إلى أن يُعبّر عن أنفُس معاني القرآن بمثل لفظه ونظمه، دون أن يكون قد أُطلق لهم وخُيروا في المعاني كلّها، ذاك لأنَّ في القول بها على غير هذا الوجه أُمورًا شنيعة، يَبْعُدُ أن يرتكبها العاقلُ ويدخلَ فيها، وذاك أنه يلزَم عليه أن تكون العربُ قد تراجعت حالُها في البلاغة والبيان، وفي جَوْدة النظم وشرف اللفظ وأن يكونوا قد نتقصوا في قرائحهم وأذهانهم، وعدموا الكثير مما كانوا يستطيعون وأن يكونوا قد نتقصوا في قرائحهم وأذهانهم، وعدموا الكثير كلام احتَفلُوا فيه (١) ، من بعد أن أوحي إلى النبي على ، وتُحدُّوا إلى معارضة عليهم في الجُملة مَجال قد كان يتسع لهم، ونضبَت (١) عنهم موادٌ قد كانت تُغزُر (١)، عليهم في الجُملة مَجال قد كان يتسع لهم، ونضبَت (١) عنهم موادٌ قد كانت تُغزُر (١)، وخذلَتهم قوي ها في مدحه عليه السلام وفي الرد على المشركين و نقصة متقاصرة عن شعرهم في الجاهلية، وأن يُشك في الذي رُوي في شأن حسّان من نحو قوله عليه السلام: في الجاهلية، وأن يُشك في الذي رُوي في شأن حسّان من نحو قوله عليه السلام: «قل ورُوحُ القُدُس مَعك» (١) ؛ لأنَّه لا يكونُ مُعانًا مُوَّيدًا من عند الله، وهو يَعلَمُ (١) مما كان يَجده قبل كثيرًا، ويتقاصر أَنْف (٨) حاله عن السّالف منها تقاصرًا شديدًا .

000

(٤) تغزز: تفيض .

⁽١) الصرفة: معناها أن العرب كانوا قادرين أن يأتوا بمثل معاني القرآن بلفظه وتأليف كلماته إلا أن الله صرفهم عن ذلك .

⁽٣) نضبت : جفت .

⁽٦) روح القدس: جبريل عليه السلام.

⁽٥) خذلتهم قوى: تخلت عنهم قدرتهم .

⁽٨) أَنْفُ حاله: جديد حاله .

⁽٧) يعدم: يخلو .

فصل

القول بالصرفة

٣٧- إن الذين قالوا بالصَّرفة بنوا كلامهم على توهم أن إعجاز القرآن يكون في التعبير عن أنفس المعاني القرآنية بلفظها ونظمها، وليس مطلق معان يأتون بها غير مقيدة بالمعاني التي تحدث عنها القرآن.

ويترتب على هذا القول بالصرفة أن يكون العرب قد تضاءلت بلاغتهم وضعف بيانهم في وضعف بيانهم في زمن الرسول عليهم عن بلاغة العرب وروعة بيانهم في الجاهلية، وأن تكون أشعارهم وخطبهم وكل كلام قالوه بعد أن أوحي إلى النبي قاصر عما قيل قبل مبعثه، وضاف عليهم ما اتسع على من سبقهم، وأن يكون قمول الرسول عليه للهم النبي العون بن ثابت: "قل وروح القدس معك" مشكوكًا في صحته؛ لأنه لا يطلب العون لرجل قد عدم ما كان متوافرًا عند قومه الأولين، وقصر عنهم قصورًا شديدًا.

٣٨- فإن قالوا: إنَّه نُقْصَانٌ حَدَثَ في فصاحتهم من غير أنْ يَشْعُروا به.

قيل لهم: فإنْ كان الأمرُ كذلك، فلم تَقُمْ عليهم حُبجَّة؛ لأنه لا فرق بين أن لا يكونُوا قد عَدمُوا شيئًا من الفصاحة التي كانوا يَعْرفُونها لأنفسهم قبل التَحدِّي بالقرآن والدعاء إلى مُعارضته، وبَينَ أن يكونوا قد عَدمُوا ذَاك، ثُمَّ لم يعلموا أنَّهم مُمكنًا قبل أنْ تُحدُوا. ولا يكون مَعْ حتى يُرام الممنوع (١) ولا يتصور أنْ يَروُه مَمكنًا قبل أنْ تُحدُذوا. ولا يكون مَعْ حتى يُرام الممنوع (١) ولا يتصور أنْ يَروُه الإنسان الشيء ولا يعلمُه، ويقصد في قول له وفعل إلى أن يجيء به على وصف وهو لا يعرف ذلك الوصف ولا يسَصور أه بحال من الأحوال، وإذا جعلناهم لا يعلمون أن كلامهم الذي يتكلمون به اليوم قاصر عن الذي تكلموا به أمس، وأنْ قد المتنع عليهم في النظم شيء كان يُواتيهم (٢)، وسلبوا منه معنى قد كان لهم حاصلاً - استحال أنْ يعلموا أنَّ لنظم القرآن فَضْلاً على كلامهم الذي يُسمع منهم، وعلى النظم الواهن الباقي لهم "٢) . ذاك لأنَّ عُذْرَ القائل بالصرفة، أنَّ كلامهم قبل أن تُحدُوا قد كان مثل نظم القرآن، ومُوازيًا له، وفي مبلغه من الفصاحة .

4 4 4

٣٩- وإذَا كان كذلك، لم يُتَصَوَّر أن يعلَمُوا أن للقرآن مزية على كلامهم، وعندهم أن كلامهم باق على ما كان عليه في القديم لم يَنْقُص ولم يَدْخُلُه خَلَلُ (1)، وإذا لم يُتَصَوَّر أن يعلموا أن للقرآن مزية على ما يقولونه ويقدرون عليه في الوقت، لم يتصوَّر أن يُحاولوا تلك المزيّة، وإذا لم يحاولوها لم يُحسُّوا بالمنع منها والعَجْز عن نَيْلها، وإذا لم يُحسُّوا بالعجز والمنع لم تقم عليهم حُجَّةٌ به، فالذي يعقل إذَن مع هذه الحال، أن يعتقدوا أنَّهم قد عَارضُوا القرآن وتكلَّمُوا بما يُوازيه ويَجْرِي مَجْرَى المَنْل له، من حيث إنَّه إذا كان عندهم أنَّ كلامهم باق على ما كان عليه في الأصل وقبل نزول القرآن، وكان كلامهم إذ ذاك في حَدِّهُ المنْل والمُساوي للقرآن، فواجبٌ مع هذا الاعتقاد أن يعتقدُوا أنَّ في جملة ما يقولونه في الوقت ويقدرون عليه، ما يُشْبه القرآن ويُوازيه.

⁽١) يرام الممنوع: يقصد.

⁽٣) الواهن: الذي أصابه الضعف.

 ⁽٥) في حد المثل: في نطاقه وحدوده .

⁽۲) يواتيهم: كان طوعهم وقادرين عليه .

⁽٤) خلل: فساد .

٣٨- فإن قالوا: إن فـصاحة العرب قد نقصت دون شـعور منهم. نقول: إن كان الأمر كما زعـمتم لم تقم عليكم الحجة، ولا فرق بين ألاّ يتصفوا بالفصاحة التي كانوا يعرفونها في أنفسهم، وبين أن تكون لديهم الفيصاحة ثم سلبت عنهم دون أن يعلموا ذلك؛ لأنهم كما يزعمون كانوا قادرين أن يأتوا بمثل الـقرآن في لفظه ونظمه قبل التحدي؛ إذ لا يتصور أن يقصد المرء في قول أو فعل، أو يأتى بوصف لا يعرفه ولا يتصوره في حال من الأحوال.

وإذا كان كلامهم الذي يتحدثون به اليـوم قاصـرًا عمـا كانوا يتحـدثون به بالأمس، وامنتع عليهم النظم الذي كان سهالاً عليهم يواتيهم حيثما أرادوا، استحال عليسهم أن يعرفوا أن لنظم القرآن فضلاً على كــلامهم الذي يتفوهون به، فعذر القائلين بالصرفة أن كلامهم كان مثل نظم القرآن بلاغة ونظمًا، ولكن قبل أن يتحداهم الرسول عليها بالقرآن.

ومن ثم كان قولهم بالصرفة، أي أن الله صرفهم عن الإتيان بمثل نظم القرآن، وإن كانوا قادرين على أن يأتوا بمثله .

٣٩- وإذا قالوا: إن إعجاز القرآن كان بالصرفة، لم يتصور منهم أن يكون للقـرآن ميـزة على كـلامهـم، وكلامـهم في زمن الرسـول عَلَيْكُم لم ينقص عن كلامهم قبله، وإذا لم يحسوا بالعجز والمنع لم تقم عليهم الحجة.

فالذي يعسقل والحالة هكذا أن يعستقدوا أنهم عارضوا القرآن وأتوا بمثله وما يجري مسجراه وأن يعتـقدوا في جملة مـا يقولون مـا يشبه القـرآن ويوازيه بلاغة • ٤ - واعلم أنه يَلْزَمهم أن يَقْضُوا (١) في النبيّ بما قَضَوا في العرب، من دخول النَّقْصِ على فصاحتهم، وتَرَاجُع الحال بـهم في البيان، وأنْ تَكُون النَّبُوَّةُ قد أوجبت أن يمنع شَطَرًا (٢) من بيانه، وكثيرًا مما عُرف له قبلَها من شَرَف اللّفظ وحُسن النّظم، ذاك لأنهم إذا لم يقولوا ذلك، حصل منه أن يكون عليه السلام قد تُلاَ عليهم: ﴿قُلْ لَّئِنِ اجْتُمُعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقَرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْله وَلَوْ كَانَ بعضهم لبعض ظهيراً (٣) ﴾ [الإسراء:٨٨ | في حال هو يستطيع فيها أن يجيء بمثل القرآن ويَقْبدُرُ عليه، ويتكلّم ببعض ما يوازيه في شُرف اللَّفْظ وعُلُو النظم، اللهُمُ إلا أن يقتحمُوا(٤) جهالة أخرى، فيزعموا أنه عليه السلام قد كان في الأصل دونهم في الفصاحة، وأن الفضل والمزية التي بها كان كلامُهم قبلُ نزول القرآن في مثل لَفْظه وَنَظمه، قـد كـان لبُلغاء العـرب دون النبي، وإذا قــالوا ذلك، كانوا قــد خرجوا من قبيح القول إلى مثله، فلم يَشكُ أحدٌ أنّه عَلَيْكِم لم يكن مَنْقُوصًا في الفصاحة، بل الذي أتت به الأخبار أنّه عليسهم كان أفصر العرب.

١٤ - وممَّا يلزَمُهم على أصل المقالة أنَّه كان ينبغي لَهُم - لَو أنَّ العربَ كانت مُنعت منزلةً من الفصاحة قد كانوا عليها- أنْ يعرفوا ذلك من أنفسهم، كما قدّمت، ولو عـرفوه لكان يكون قـد جاء عنهم ذكُـرُ ذلك، ولكانوا قد قـالوا للنبي عَلِيْكُ إِنَّا كُنَّا نُستطيع قَبْلُ هذا الذي جثتنا به، ولكنك قد سُحَرْتَنَا، واحْتَلْتَ (٥) في شيء حال بيننا وبينه»، فقد نسبوه إلى السَّحر في كثير من الأمور كما لا يخفى، وكان أقل ما يجب في ذلك أن يتذاكرُوه فيما بينهم، ويشكُوهُ البعضُ إلى البَعْض، ويقولوا: «مَا لَنَا قَدْ نَقَصْنَا في قرائحنا، وقد حَدَث كُلُولٌ^{٢٦)} في أذهاننا»، ففي أنْ لم يُرُو ولم يُذْكُرُ أَنَّه كَانَ منهم قولٌ في هذا المعنى، لا ما قَلَّ ولا مَا كَثْر، دَليلٌ على أنَّه قول فاسد، ورأى ليس من آراء ذوي التحصيل (٧).

⁽٢) الشطر: نصف الشيء، وقد يستعمل في الجزء منه .

⁽١) يقضوا: يحكموا. (٣) ظهيرًا: معينًا .

⁽٤) يقتحموا: يدخلوا قسرًا.

⁽٥) احتال: استعمل مهارته ليصل إلى مراده .

⁽٦) كلول: كلل وضعف. (٧) ذوي التحصيل: العقل والإدرارك.

عليه قبل مبعثه فقد وجب عليهم أن يقضوا في النبي بما قضوا به على أنفسهم من نقصان الفصاحة، وأنه منع من شرف اللفظ وحسن النظم كما منعوا، وإذا لم يقضوا بذلك لكان قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئن اجْتَمَعَت الإِنسَ وَالْجَنَّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمثَّل هَذَا الْقُرْآنَ لَا يَأْتُونَ بِمثله وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لَبَعْضِ ظَهِيرًا ﴾ ﴿الإسراء: ٨٨ ، وهو في حال من الفصاحة يستطيع أن يجيء بمثل القرآن في شرف اللفظ ودقة النظم.

اللهم إلا إذا زعموا أن الرسول عليه السلام كان أقل منهم فصاحة، وهذا من قبيح القول؛ إذ الثابت أنه كان أفصح الناس لسانًا وأقواهم بيانًا .

ا ٤- ولو أنهم من الفصاحة التي كانوا عليها قبل زمن النبي عَلَيْتُ لكان ينبغي أن يعرفوا ذلك في أنفسهم، ولـو عرفوا لتحـدثوا به وتحدث الناس عنهم، ولو كان ذلك حـقيقـة لقالوا للنبي عليـه السلام: كنا نسـتطيع أن نأتي بمثل الذي جئت به، ولكنك سحرتنا وحلت بيننا وبين ذلك .

ولكنهم يذكروا ذلك ولم يرووه، لا بما قل ولا بما كثر، مما يدل على فساد قولهم بالصرفة.

٤٢ – هذا، وفي سياق (١) آية التحدِّي ما يدُلُّ على فَسَاد هذا القول، وذلك أنَّه لا يُقال عن الشيء يُمنعُهُ الإنسان بعد القُدرة عليه، وبَعد أنْ كان يَكثُر مثلُه منه: «إني جئتكم بما لا تُقدرون على مشله ولو احتشدتم له (٢)، ودعوتُم الإنسُ والجنَّ إلى نُصْرتكم فيه، - وإنما يقال: «إنِّي أعطيتُ أنْ أحول بينكم وبين كلام كنتم تستطيعونه وأمنعكم إيّاه، وأن أفحمكم (٣) عن القول البليغ، وأعدمكم اللَّفظَ الشَّريف،، وما شاكلَ هذا. ونظيره أن يُقَالَ للأَشدَاء وذُوي الأَيْدُ (٢) : «إنَّ الآيةُ أن تَعْجزُوا عن رَفْع ما كان يَسْهُلُ عليكم رَفْعُه، وما كانَ لا يَتْكَاءَدُكم (٥)، ولا يثقُلُ عليكم».

ثُمَّ إِنَّه ليس في العُرف ولا في المعقول أن يقال: «لو تعاضدتم (٦) واجتمعتم جميعكم لم تقدروا عليه، في شيء قـد كان الواحدُ منهم يَقْدر على مِثْله، ويسهلَ عليه ويستقل به، ثم يمنعون منه- وإنما يقال ذلك حيث يراد أن يقال: «إنكم لم تستطيعـوا مثلًه قَطَّ، ولا تستطيعـونه البَّتَةُ (٧) وعلى وجه من الوجوه، حتى إنكم لو استضَفْتُم إلى قُواكم وقُدركم التي لكم قُوى وقُدرًا (١) ، وقد استمدَدتم من غيركم، لم تستطيعوه أيضًا ، من حيث إنه لا معنى للمعاضدة والمظافرة والمعاونة (٩)، إلا أن تَضُم قدرتك إلى قدرة صاحبك حتى يَحْصل باجتماع قدرتكما ما لم يكن يَحْصَل (الأحدكما منفرداً).

فقد بان إذَن أنْ لا مُسَاغ لحمل الآية على ما ذُهَبُوا إليه، وأنْ لا مُحْتَمَل فيها لذلك على وجه من الوجوه، وظُهَرَ به وسائر ما تقدُّم أنَّ القولُ بالصُّرْفة، ولاسيما على هذا الوجه، قولٌ في غاية البُعْد والتهافُت (١٠٠)، وأنه من جنس ما لا يُعْذَر العاقل في اعتقاده، ولم أقُل: «ولاسيما على هذا الوجه»(١١)، وأنا أعني أن للقول بها على الوجه الأول مُسَاعًا (١٢) في الصحة، ولكني أردت أن فساده كأنّه أظهرً، والشناعة عليه أكثر ، وإلا فما هما، إن أردت البطلان ، إلا سواء .

⁽١) سياق آية التحدي: أسلوب الآية التي جرت عليه .

⁽٣) أفحمكم: أصدكم وأمنعكم وأقطع حجتكم.

⁽٥) يتكاءدكم: يشتد عليكم ويصعب.

⁽٧) لا تستطيعونه البتة: لا تستطيعونه أبداً.

⁽٩) المعاضدة: المؤازرة، المظافرة: النصرة، المعاونة: المساعدة.

⁽١١) لاسيما: خاصة.

⁽٢) احتشدتم له: اجتمعهم .

⁽٤) ذوى الأيد: أصحاب القوة.

⁽٦) تعاضدتم: ساند بعضكم بعضاً.

⁽٨) قدرا: قدرة .

⁽١٠) التهافت: البطلان والسقوط.

⁽١٢) مساغًا: طريقًا.

٤٢ - وفي سياق قوله تعالى: ﴿قُل لَّئن اجْتُمُعَت الإِنسُ وَالْجنُّ ﴾ ما يدل على فساد قـولهم بالصرفة؛ لأنه إذا منع المرء من شيء قد اعتـاد على فعله لا يقال له: إني قد جئتكم بما لا تقدرون على مثله، ولو كنتم جميعًا بما فيكم إنسكم وجنكم، ولكن يقول: إني قد جئتكم بكلام أحيل بينكم وبين الإتيان بمثله، وأمنعكم عن فعل نظيره، وإن كنتم قبل ذلك تستطيعونه.

وليس من المنطق أن يـقول لهم: لو اجـتـمـعتـم كلكم على الإتيـان بمثله لما استطعتم، في شيء كانوا يقدرون عليه ويسهل لديهم، وإنما يقال في مثل هذه الأمور: أتيـتكم بشيء، لا تستطيعـون أن تأتوا بمثله قط، ولو أضفـتم إلى قواكم قوى أخر، إذ لا معنى للمساندة والمؤازرة.

فالآية - إذن - لا تحمل على ما ذهبوا إليه من قولهم بالصرفة لما في ذلك من التهافت والبعد، والبطلان والفساد. ٤٣ - فإن قلت : فكيف الكلام عليهم، إذا ذهبوا في "الصَّرْفَة» إلى الوجه الآخر، فزعموا أن التحدِّي كان أن يأتُوا في أَنْفُسِ مَعَانِي القرآن بِمِثْل نَظمه ولفظه؟ وما الذي دَلَّ على فساده؟

فإنَّ علَى فساد ذلك أدلَّة منها قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلُهِ مُفْتَرِيَاتٍ ﴾ [مود: ١٣] ، وذاك أنَّا نعلم أنَّ المعنى: فأتوا بعشر سور تفترونها أنتم - وإذا كان المعنى على ذلك، فبنا أن ننظرُ في الافتراء إذا وصف به الكلام، إلى المعنى يَرْجع أم إلى اللَّفظ والنظم؟ وقد عَرفنا أنَّه لا يرجع إلا إلى المعنى، وإذا لم يرجع إلا إلى المعنى وجب أن يكون المراد: إن كنتم تزعمون أنِّي قد وضَعْتُ القرآن وافتريتُهُ، وجثتُ به من عند نفسي، ثم زعمت أنَّه وَحْيٌ من الله، فضعوا أنتم أيضًا عَشْرَ سُور وافترُوا معانيها كما زَعمتم أنِّي افتريتُ معاني القرآن، فإذا كان المراد كذلك، كان تقديرُهم أن التحدي كان أن يَعْمدوا إلى أنفُس معاني القرآن فيُعبَّروا عنها بلفظ ونَظم يشبه نَظمَه ولفظه، خروجًا عن نص التنزيل وتحريفًا له (١).

وذلك أنَّ حقَّ (٢) اللفظ- إذا كان المعنى ما قالوه- أن يُقال: "إن زعمتم أنِّي افتريتُه، فأتوا أنتم في معاني هذا المُفْتَرى بمثل ما تَرَون من اللَّفْظ والنَظم»، يُبيَّنُ ذلك أنَّه لو قَال رجل شعرًا فأحسن في لفظه ونَظمه وأبلغ، وكان له خَصمٌ يُعانده، فَعَلمَ الخَصْمُ أنه لا يَجد عليه مَغْمَزًا (٣) في النظم واللفظ، فترك ذلك جانبًا وتشاغل عنه، وجعل يقول: "إنِّي رأيتُك سَرقت مَعاني شعرك وانتُحلتَها (٤) وأخذتها من هذا وذاك ، قال له الرجل في جواب هذا الكلام: "إنْ كُنْتُ قَدْ سَرَقتُ معاني شعرًا فقل أنتَ شعرًا مثله مَسْروق المعاني "- لم يُعْقَلْ منه إلا أنه يقول: "فَقُلْ أنتَ شعرًا في معان أُخَر نَسْرقها كما سرقت معاني بزعمك » - ولم يُحْتَمَل أن يريد: "اعْمَدُ في معان أُخَر نَسْرقها كما سرقت معاني بزعمك » - ولم يُحْتَمَل أن يريد: "اعْمَدُ إلى معاني فقُلْ فيها شعري » فقل أنت في هذه المعاني المسروقة مِثْلَ الذي قلتُ، وانظم سَرَقْتُ معاني شعري، فقل أنت في هذه المعاني المسروقة مِثْلَ الذي قلتُ، وانظم فيها الكلام مِثْل نظمي لكلامي، وحبره تَحْبيري "(٥).

⁽١) تحريفًا له: خروجًا عن معناه . (٢) حق اللفظ: أصل اللفظ .

⁽٣) مغمزًا: طعنًا . (٤) تحل الشيء: نسبه لنفسه .

⁽٥) حبّره تحبيري: افرغ جهدك في تزيينه وتنميقه .

٤٣ – وما القول إذا كانت الصرفة عندهم أن يأتوا بأنفُس المعاني القرآنية بمثل لفظها ونظمها، وما دليل فساده؟

يدل على فساد ذلك كثير من الأدلة .

منها قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ﴾ أمي افتروا معانيها كما زعمتم أني افتريت معاني القرآن. وهذا واضح من سياق الآية، فإذا قدرتم أن المراد هو أن تأتوا بأنفس معاني القرآن كان ذلك خروجًا عن نص الآية وتحريفًا لها.

ومنها: إن زعمــتم ما تقولون لكان ينبغي أن يكون أصــل الكلام: إن زعمتم أني افتريته، فأتوا أنتم في معاني هذا المفترى بما ترون من النلفظ والنظم.

كقولك لمن يزعم أنك سرقت شِعرك وأخدته من فلان أو فلان: إن كنت سرقت معاني شِعري فقل أنت في هذه المعاني التي سرقتها مثل الذي قلت، وليس هذا بمستساغ.

٤٤- هذه جُمْلَةٌ لا تَخْفَى على من عَرَفَ مخارجَ الكلام، وعَلَم حَقَّ المعنى من اللفظ، وما يُحْتَمل ممَّا لا يحتمل، ومنها ما تقدَّم، من أنَّهُ لا يُقال في الشيء قد كان يكثر مثله من الإنسان ثُمَّ مُنعَ منه: «إيت بمثله، واجْهَدْ جُهْدك، واستعن عليه، فإنك لا تستطيعه ولو أَعَانَك الجن والإنس»، وإنَّمَا يُقالُ ذلك في البديع المُبْتَدأ (١)، أو الذي لم يُسْبَقْ إليه، ولم يُوجَدْ مثلُه قطُّ.

وهذا المعنى وإن كان يلزّمُهم في الوجهين، فإنّه لَهُم في هذا الوجه الذي نحن فيه ألزم، وذاك أن قولك للرجل يقدر على مثل الشيء اليوم في كثير من الأحوال والأمور، ويَعُوقه عنه عائق (٢) في حال واحدة وأمر واحد: «لو اجتمع الإنس والجن فأعانوك لم تقدر على مثله» – أبعد وأقبح من قولك ذلك، وقد كان يقدر عليه في سالف الأزمان، ثم مُنعَه جملة ، وجُعل لا يستطيعه البتة.

ومنها الأخبار التي جاءت عن العرب في تعظيم شأن القرآن، وفي وصفه بما وصفوه به من نحو: "إنّ عليه لطكلاوة، وإن له لحلاوة، وإن أسْفَله لمُغْذق، وإن أعلاه لمُشُمرٌ" (٣) ، وذَاك أن مُحَالاً أن يُعظّموه، وأن يُبهَتُوا عند سماعه، ويَسَتكينوا له (١) وهم يَرون فيما قالوه وقاله الأولون ما يوازيه، ويعلمون أنه لم يتعذّر عليهم لأنهم لا يَسْتَطيعون مثله، ولكن وجدوا في أنفسهم شبه الآفة والعارض (٥) يعرض للإنسان فيمننعه بعض ما كان سهلاً عليه، بل الواجبُ في مثلَ هذه الحال أن يقولوا: "إنْ كُنّا لا يَتهيّاً لَنَا أن نَقُول في معاني ما جئت به ما يُشبهه، إنّا لَنَاتيك في غيره من المَعاني ما شئت وكيف شئت، بما لا يقصر عنه ولا يكون دُونَه».

O O O

⁽١) البديع المبتدأ: الشيء يبتدأ به ولم يسبق إليه .

⁽۲) يعوقه عائق: يمنعه مانع .

⁽٣) معذق: يصل إلى الأغوار والأعماق في كل اتجاه.

⁽٤) يبهتوا عند سماعه: يدهشوا له، يستكين للشيء: يخضع له .

⁽٥) الآفة: العلة والداء، والعارض: الشيء يعرض للمرء فيمنعه مما كان قادرًا عليه .

33- ولا يخفى على من عنده علم بأساليب الكلام، فإنه لا يقال لمن يحسن القول ويأتي بالكثير منه، ثم يمنع عنه، لا يقال: إنك لا تقدر أن تأتي بمثل ما كنت تأتي به، ولو استعنت بالإنس ومعهم الجن، وإنما يقال ذلك لمن ابتدأ كلامًا لم يسبق إليه، ولم يوجد مثله أبدًا.

وقد جاء عن العرب أخبار كثيرة تعظم من شأن القرآن، وخلعوا عليه من الوصف ما لا مزيد عليه كقولهم: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغذق وإن أعلاه لمثمر»، ومحال أن يعظموا القرآن كل هذا التعظيم وهم يرون في كلام العرب ما يوازيه ولا يتعذر عليهم الإتيان بمثله، ولكنهم وجدوا في أنفسهم من العلل ما يدفعهم عنه، وهو قريب منهم وفي متناول أيديهم.

بل ينبخي في مثل هذه الحال أن يقولوا: لا نستطيع أن نأتي بنفس معاني القرآن، ولكن نستطيع أن نأتي بغير معانيه ما شئنا بحيث يوازيه ولا يقصر عنه.

20 - وجُملة الأمر أن عَلَمَ النَّبُوَّة (١) عندئذ والبُرْهَانَ، إنَّمَا كان يكون في الصَّرْف والمنع عن الإتيان بمثل نَظم القرآن لا في نَفْس النظم، وإذا كان كذلك، فينبغي إذا تعجَّب المُتَعَجِّب وأكبر المُكْبِرُ (٢)، أن يَقْصد بتعجَّبه وإكباره إلى المَنْع الذي فيه الآية والبرهان، لا إلى الممنوع منه، وهذا واضح لا يُشكَل (٣).

000

73 - فإنْ قَالُوا: إِنَّهُ لَيَكُون أَن يَسْتَحْسِن الشَّاعرُ الشَّعرَ يقولُه غَيْرُهُ ويُكبر شأنه، ويَرَى فيه فَضلاً ومَزيَّةً على ما قاله هو من قبَّلُ، ثُمَّ هو لا يياس من أن يقدرَ على مثله إذا هو جهد نَفْسَهُ وتَعَمَّل له (٤) ، فنحن نجعل لفظ القرآن ونظمه على هذا السبيل، ونقول: إنهم سَمعُوا منها ما بَهرهم وعَظُم في نفوسهم، وأنهم كانوا على حال أنسُوا (٥) من أنفسهم بأنَّهُم يأتُون بمثله إذا هُمُ اجتهدُوا، فحيل بينهم وبين ذلك الاجتهاد، وأخذوا عن طريقه، ومنعوا فَضل المنَّة (٦) التي طمعوا معها في أن يَجرُوا إلى تلك الغاية ويبلُغوا ذاك الذي أرادوا، وإذا كُنَّا نعلم أن الشاعر المفلق (٧) ربّما اعتاص (٨) القولُ عليه حتى يَعْيَا (١) بقافية، وحتى تَنْسَدَّ عليه المذاهبُ، وأن الخطيب المصفقع يُرْتَج (١٠) عليه حتى لا يبجد مقالاً، وحتى لا يُفيض بكلمة، لم يكن الذي المضقع يُرْتَج (١٠) عليه حتى لا يبجد مقالاً، وحتى لا يُفيض بكلمة، لم يكن الذي المناه وقدرناه بعيدًا أن يكونَ، وأنْ يَسَعَهُ الجَوازُ ويَحْتملَه الإمكان.

قيل لهم: أنتمُ الآنَ كَأَنَّكُم أردتم أن تُحْسَنُوا أمركم، وأن تُغَطُّوا على بعض العَوار (١١) ، وأن تَتَمَلَّصُوا (١٢) من الذي تُلزَّمُون، وليس لكم في ذلك كبيرُ جَدُوى (١٣) إذا حُقِّقَ الأمرُ، وإنَّمَا هو خداعٌ وضرب من التَّزويق.

⁽١) علم النبوة: دليل الرسالة .

⁽٣) واضح لا يشكل: لا يغمض ولا يخفى .

⁽٥) أنسوا من أنفسهم: رأوا منها.

⁽٧) الشاعر المفلق: البارع الذي لا نظير له.

⁽٨) اعتاص القول: خفي والتوى وصعب.

⁽٩) يعيا بالقافية: يجهد ويضعف.

⁽١٠) الخطيب المصقع: المفوه ذو البيان الواضح، ارتج عليه: استغلق عليه الكلام .

⁽١١) العوار: العيب والنقص . (١١) تتملصوا: تتخففوا وتهربوا .

⁽۱۳) كبير جدوى: عظيم فائدة .

⁽٢) أكبر المكبر: إكبار الكبير.

⁽٤) تعمل له: تفرغ له واهتم به .

⁽٦) فضل المنة: فضل المزية .

20- فدليل النبوة هو عدم قدرتهم على الإتيان بمثل نظم القرآن، وليس بنظم القرآن نفسه، والتعجب حدث من عدم القدرة على إمكانهم ذلك، وليس لأنهم صرفوا عنه، وهذا من الوضوح بمكان.

000

27- وإذا استمع شاعر إلى شعر شاعر آخر فاستحسنه، فإنه يرى فيه فضلاً ومزية لم يستطع هو نفسه أن تكون في شعره نفس الميزة، إلا أنه لا ييأس فيجهد نفسه ليصل إلى مثل هذا الشعر الذي سمعه في الجودة والميزة.

وأمر القرآن كذلك، فقد سمعوا ما يبهر، ولكنهم يئسوا في أنفسهم أن يأتوا بمثله إذا اجتهدوا، ولكن حيل بينهم وبين هذا الاجتهاد فلم يقدروا.

وإذا كنا نعلم أن الشاعر العظيم المبهر ربما صعبت عليه قافية وعيي بها، وأن الخطيب المصقع قد يرتج عليه فلا يفيض بعبارة، فلم يكن ما قلناه في شأن العرب بعيداً عن مسمعك، ويحتمل إمكانهم الإتيان بمثل القرآن إلا أنه قد حدث معهم ما يحدث للشاعر المفلق والخطيب المصقع.

وَأُولُ مَا يَدُلُ عَلَى بُطلان مَا قلتم، أنَّ الذي عرفنا من حال النَّاس فيما سبيله ما ذكرتم، الـتضُّحُرُ ، والشكوى، وأن يقـولوا: «ما بَالُنا؟ ومن أَيْنَ دُهَينا؟ وكـيف الصُّورة؟ إنَّا وإن كُنَّا نسمعُ قـولاً له فَـضْلٌ ومزيةٌ على مـا قلناه، فـإنه ليس بالذي ينبغي أن نُعجز عنه هكذا حتى لا نُستطيع في معارضته ما نُرْضَى، فلا ندري أُسُحِرْنَا أم ماذا كان؟ ٣- ففي أن لم يُرُو عنهم شيءٌ من هذا الجنس على وجه من الوجوه، دليل أن لا أصل لما توهموه، وأنَّه تلفيق (٢) باطل.

ثُمَّ إنه ليس في العادة أن يُذُعن (٣) الرجل لخَصمه، ويستكين له، ويُلقي بيده، ويسكت على تقريعه له بالعُبجْز وترديده القول في ذلك، وقُدْرُ ما ظُهر من المُزيّة قَدَرٌ قد يَطمَع الإنسانُ في مثله، ويُرَى أنه يَنَاله إذا هو اجـتهَدَ وتعمَّد- بل العادة في مثل هذا أن يَدُفَّعُ العَجزُ عن نفسه، وأن يَجْحُد الذي عرف لصاحبه من المزيّة ويتشدّد، كـما فَعل حَسّان، فَـيَدّعي في مساواته، وأنه إن كـان جرى إلى غاية رّأى لنفسه بها تـقدُّمًا إنه ليجري إلى مثلها، وأن يقـول: ﴿ لَا تَغُلُّ وَلَا تُفَرُّطُ وَلَا تُشْتَطُّ ﴿ ا في دعـواك، فلئن كنتَ قَـدُ نلْتَ بعضَ السّبـق، إنّك لم تُبعـد المَدَى^(ه) بُعد من لا يُدَانِي ولا يُشَقَّ، فرويداً (٦) ، وَاكْفُفْ من غُلُواتُكَ ١٠٥٠ .

⁽١) التضجر: التبرم.

⁽٢) التلفيق: ضم الشيء إلى آخر، ليستخرجوا منه أمراً.

⁽٣) أذعن: خضع .

⁽٤) لا تشتط: لا تسرف.

⁽٥) المدى: الغاية.

⁽٦) رويدًا: تمهل .

⁽٧) اكفف من غلوائك: قلل من إسرافك وتكبرك.

نقول لهم: لقد أردتم أن تداروا عجزكم ولجأتم إلى ضرب من الخداع والتزويق.

ويدل على بطلان ما قلتم، لو كان الأمر كما تقولون لملأتم الدنيا شكوى وتضجراً، ولقلتم: إن القرآن وإن كان فيه فضل ومزية، إلا أننا لن نعجز عن معارضته، ولا ندري إن كُنَّا قد سحرنا أم ماذا أصابنا، ولكن لم يرد عنكم شيء من ذلك مما يدل على تلفيق هذه الدعوى وهذا الزعم.

وليس من المعتاد أن يذعن الرجل لخصمه، وهو قادر أن يأتي بمثل دعواه؛ بل العادة أن يدفع العجز عن نفسه، وأن يجحد المزية التي يتشدق بها صاحبه.

ويستشهد عبد القاهر بادعاء حسان بن ثابت بأنه قادر أن يأتي بكلام يوازي القرآن ويحاذيه، والرد عليه بأنه وإن كان قد نال بعض السبق، إلا أنه لم يصل إلى المدى الذي يعجز عنه غيره، فتمهل أيها المدعى واكفف من غرورك وتيهك.

24 - واعلم أنهم بتمحلهم (١) هذا قد وقعوا في أمر يُوهي (٢) قاعدتهم، ويقدر ويقدر (٢) في أصل مقالتهم، فقد نظروا لأنفسهم من وَجْه وتركوا النّظر لها من آخر، وذاك أن من حقّ المنع إذا جُعل آية وبرهانًا، ولاسيّما للنّبُوة، أنْ يكون في أظهر الأمور وأكثرها وجودًا، وأسهلها على النّاس، وأخْلقها (٤) بأن تبين لكلّ راء وسامع أنْ قَدْ كان منع لا أن يكون المنع مَن خَفي لا يُعْرَف إلا بالنّظر، وإلا بعد الفكر، ومن شيء لم يُوجَد قط ولم يُعهد، وإنّما يظن ظنّا أنّه يجوز أن يكون، وأن له مَد خَلًا في الإمكان إذا اجْتهد المجتهد، وهل سمع قط أن نبيًا أتى قومه فقال: احجري عليكم، والآية أنّي نبي اليكم، أن تُمنعوا من أمر لم يكن منكم قط ، وليس يظهر في بادئ الرأي (٥) وظاهر الأمر أنكم تستطيعونه، ولكنه موهوم جوازه منكم، يظهر في بادئ الرأي (٥) وظاهر الأمر أنكم تستطيعونه، ولكنه موهوم جوازه منكم، إذا أنتم كددتم أنفسكم (١) ، وجمعتم ما لكم، واستفرغتُم مَجْهُودكم (٧) ، وعاودتم مُجهُودكم (١) لا يتوله عاقل الإيقدم عليه إلا الجبتهاد فيه مرة بعد أُخْرَى؟ الم ذلك ما لا يقوله عاقل الا يثدم عليه إلا بمازف (٨) لا يدري ما يَقُول؟

وإذا كان كذلك، وكان الذي قالوه من أنّ المنع كانَ من نَظْم لم يُوجَدُ منهم قَطَّ، إلا أنَّهُم أحسُوا في أنفسهم أنهم يستطيعونه إذا هُم أجتهدُوا واستفرغوا الوسع، بهذه المنزلة، وداخلاً في هذه القضية - فقد بان أنَّهُم بذلك قد أوْهَوْا قاعدتهم، وقَدَحُوا في أصل المقالة، من حيث جعلوا الآية والبرهان وعَلَمَ الرِّسَالة والأمر المُعْجز للخلق، في أصل المقالة، من حيث جعلوا الآية والبرهان وعَلَم الرِّسَالة والأمر المُعْجز للخلق، في المنع من شيء لم يُوجَدُ قطَّ، ولم يُعْلَمُ أنَّهُ كان في حال من الأحوال، وليس بأكثر من أنْ ظُنَّ ظَنَّا أنه عما يحتمله الجواز ويدخُل في الإمكان، إذا أَدْمن (١) الطلب، وكشر فيه النعب، واستنز فت (١٠) قُوى الاجتهاد، وأَرْسلَت لَهُ الأفكار في كل طريق، وحُشِدَت إليه الخواطر من كُلِّ جهة، وكفَى بهذا ضعف راي وقلّة تحصيل.

000

⁽١) تمحل الشيء: زعمه وادعاه . (٢) يوهي : يضعف . (٣) يقدح: يطعن . (٤) أخلقها: أجددها .

⁽a) بادئ الرأي: أول الأمر . (٦) كددتم أنفسكم: أجهدتم وأتعبتم أنفسكم .

⁽٧) استفرغتم مجهودكم: بذلتم أقصى ما تستطيعون من جهد.

⁽٨) مجازف: مغامر . (٩) أدمن الطلب: تكرر .

⁽۱۰) استنزفت القوى: ضعفت وانمحت.

٧٧ - وبهذا التمحل وقعوا في أمر أضعف حجتهم، وأوهى قاعدتهم.

وإذا كان المنع هو حـجتهم خـاصة فيـما يتعلق بالنبـوة والقرآن أن يكون في الأمور الظاهرة التي يراها ويسمعها كـل راء وسامع، ولا يكون المنع فيما خفي من الأمور، ولا يعرف إلا بعد الفكر والتأمل، أو في شيء لم يوجد قط.

وقد يكون الأمر ممكنًا إذا اجتهدوا فيه وتمرسوا في محاولته، لم يسمع من نبي قط أن قال لمقومه: حجتي عليكم أن تمنعوا من أمر لم يكن منكم قط، ولكن يتوهم وجوده منكم وإتيانكم به إذا عاودتم الاجتهاد المرة تلو المرة؛ لأن ذلك لا يقوله عاقل، ولا يقدم عليه إلا مجازف.

وإذا قالوا: إن المنع كان من نظم لم يوجد منهم من قبل، غير أنهم شعروا في قرارة أنفسهم أن باستطاعتهم أن يضاهوه إذا شمروا عن ساعد الجد واستفرغوا جهدهم فيه.

إذا قالوا ذلك فقد أضعفوا حـجتهم من حيث قد جعلوا برهانهم في المنع من شيء لم يوجد ولم يعلم من قبل، ولكن يظن أو يتوهم إمكانهم عليه إذا ضاعفوا من جهدهم وحشدوا كل قواهم وأدمنوا في الطلب، وكفى بهذا تهافتًا وضحالة.

فصل

(ختام الرسالة الشافية)

٨٤ - وهذا فصل أختم به:

يَنْبَغِي أَن يقال لهم: مَا هذا الَّذي أَخَذْتُم به أنفسكم؟ وما هذا التأويل (۱) منكم في عَجْزَ العرب عن معارضة القرآن؟ وما دُعاكُم إليه؟ وما أردتم منه؟ أأن يكون لكم قبول يُحكي، وتكُونُوا أُمَّةً على حِدة (۲) ، أم قد أتاكم في هذا الباب عِلمٌ لم يأت النَّاس؟

فإن قالوا: أَتَانَا فيه علم.

قيل: أَفَمِنْ نَظرِ ذلك العلمُ أَمْ خَبر؟ (٣)

فإن قالوا: من نَظَر.

قيل لهم: فكأنَّكُم تَعْنُون أنكم نَظَرتم في نظم القرآن وَنَظم كلام العرب، ووازَنْتُم فوجد تموه لا يزيد إلا بالقدر الذي لَوْ خُلُوا (٤) والاجتهاد وإعمال الفكر، ولم تَفَرَّقْ عنهم خواطرهُم عند القصد إليه، والصَّمْد له- لأتَوْا بمثله؟

فإن قالوا: كذلك نقول.

قيل لهم: فأنتم تَدَّعُون الآن أنَّ نَظَركم في الفصاحة نَظَرٌ لا يغيب عنه شيء من أمرها، وأنَّكُم قد أَحَطْتم عِلْمًا بأسرارِها، وأصبحتُم ولكم فيها فَهُمٌ وعِلْمٌ لم يكن للناس قَبْلكم.

وإن قالوا: عرفنا ذلك بخَبَر.

قيل: فهاتوا عرِّفُونا ذلك، وأنَّى لهم تعريف ما لم يَكُن، وتَثْبِيتُ ما لم يُوجَد!

⁽١) التأويل: أن يحتمل الكلام أكثر من وجه.

⁽٢) أمة على حدة: متحدة غير متفرقة ولا خلاف بينكم .

⁽٣) من نظر أم خبر: من الرؤية أو من السماع.

⁽٤) لو خلوا: لو تركوا.

فصلٌ

خاتمة الكلام

٤٨- عجز العرب عن معارضة القرآن لرفعة نظمه وجمال لفظه، ولكنكم أولتم ذلك وقلتم: إنهم صرفوا عن ذلك رغم قدرتهم عليه وفصاحتهم، وأردتم بهذا الزعم أن يكون لكم شأن يتحاكى به الناس على مر الأزمان.

فإن كان قد أتاكم علم عن طريق النظر، فنظرتم إلى نظم القرآن ونظم كلام العرب ووازنتم بين الاثنين، فلم تجدوا إلا فرقًا ضبئيلاً يمكنكم أن تستوفوه إذا أنتم

إذا قلتم ذلك فقد ادعيتم أنكم أحطتم بأسرار الفصاحة، ولكم فيها علم وفهم لم يكن لأحد قبلكم.

وإن كان قد أتاكم العلم عن طريق الخبر، فعرفونا به، وكيف يمكنهم التعريف بشيء لم يكن ولم يوجد قط؟!

ولو كان الناس إذا عَنَّ (١) القولُ نَظَروا في مُؤَدَّاه (٢) ، وتبيَّنُوا عاقبَتُه، وتَذكَّروا وَصيَّةَ الحكماء حين نَهُوا عن الورود حَتَّى يُعْرَفَ الصَّدَر ""، وحَذروا أن تَجي أعجاز (١) الأمور بغير ما أوهمت الصدور - إذًا لَكُفُوا البلاء (٥) ، ولَعُدم هذا وأشباهُ من فاسد الآراء، ولكن يأبّى الذي في طباع الإنسان من التسرّع، ثم من حُسْن الظنَّ بنفسه، والشُّغُف بأن يكون متبوعًا في رأيه، إلا أنْ يخدعُه ويُنسيَّه أنَّه مُوصَى بذلك، ومَدْعُ وَ اليه، ومُحَذَّرٌ من سُوءُ المُغَبَّة (٦) ، إذًا هو تُركه وقصَّر فيه، وهي الآفة (٧) لا يسلّم منها ومن جنايتها إلا من عصم الله إليه عز اسمه الرّغبة في أن يُوفِّق للتي هي أَهْدَى، ويَعْصِم من كلِّ ما يُوتِغُ الدِّين (٨) ، ويَثْلِمُ اليقين (٩) ، إنَّهُ

 ⁽١) عَنْ لهم القول: ورد على خاطرهم .
 (٢) نظروا في مؤداه: قصده .

⁽٣) نهوا عن الورود حتى يعرف الصدر: نهوا عن المورد حتى يعرف المصدر.

⁽٤) أعجاز الأمور: أعقابها.

⁽٥) كُفُوا البلاء: منعوا البلاء.

⁽٦) سوء المغبة: فداحة العاقبة.

⁽٧) الأفة: العيب.

⁽٨) يوتغ الدين: يهلكه ويفسده .

⁽٩) يثلم اليقين: يحدث فيه فجوة وكسرًا.

وإذا برق لهم خاطر فنظروا فيه، وتبيّنوا إلى أين ينتهي، وتذكروا وصية الحكماء بأن أول الكلام يسلم إلى آخره، وعجز القول لا يأتي إلا عن صدره لتجنبوا كثيرًا من المزالق التي يؤدي إليها التسرع في القول، وسوء العاقبة إذا أهملت وصية الحكماء، وساروا حسب هواهم فوقعوا في الهلاك والفساد.

بتنالنالغ الجين

(فصل في الصرفة)

النبي عَلَيْكُ من قال: «إنَّهُ يجوزُ أن يَقْدر الواحدُ من النَّاسِ من بعد انقضاء زمن النبي عَلَيْكُ من النَّاسِ عَلَى أَنْ يأتِي بما يُشْبِه القرآن ويكون مثله؛ لأنَّ ذلك لا يخرُجُ عن أن يكون قد كان معجزًا في زمان النبي عَلَيْكُ ، وحين تُحُدِّي العربُ إليه» - قولٌ لا يَصِبحُ إلاَّ لمن لا يجعل القرآن معجزًا في نفسه، ويذهب فيه إلى «الصرفة».

فأمّا الذي عليه العلماء من أنّه مُعْجِز في نَفْسه، وأنّه في نَظْمه وتأليفه على وَصف الا يهتدي الخَلْق إلى الإتيان بكلام هو في نَظْمَه وتأليفه على ذَلك الوصف، فلا يصبح البَنّة ذَاك لا فرق بين أنْ يكون الفعْلُ معجَزًا في جنسه كإحياء المَوْتَى، وبين أنْ يكون الفعْلُ معجَزًا في جنسه كإحياء المَوْتَى، وبين أنْ يكون معجزًا لوقوعه على وصف، وإذا كان كذلك، فكما أنّه مُحال أنْ يكون هَهُنَا نَظمٌ مثل نَظم يكون هَهُنَا نَظمٌ مثل نَظم القرآن لا من فعْله تعالى، فهذا هو.

ثُمَّ إِنَّهُ إِذَا نُقِّرِ (١) عنه انكشفَ عن أمر مُنكر، وهو إخراجُ أنْ يكون وَحْبًا من الله، وأن يكون النبي عَلَيْ الله، وأن يكون النبي عَلَيْ قد تلقّاه عن جبريل عليه السلام - والذهابُ إلى أن يكون قد كان على سبيل الإلهام، وكالشيء يُلقَى في نفس الإنسان ويُهْدَى له من طريق الخاطر والهاجس (٢) الذي يَهْجس في القلب، وذلك مما يُسْتَعَاذُ بالله منه، فإنّه تَطَرُقٌ للإلحاد (٣)، والله ولى العصْمَة والتوفيق.

000

⁽١) إذا نقر عنه: إذا فتش فيه .

⁽٢) الهاجس: الصوت الخفي الذي يسمع ولا يفهم.

⁽٣) الإلحاد: الانحراف عن الدين.

٤٩- ومن أقسوال الذين نادوا بالصرفة، أنه يجوز للرجل بعد انقضاء زمن النبي عَلَيْكَ الله وبعد مضيّ وقت التحدي أن يـأتي بما يشبه القرآن، ومعنى ذلك أن القرآن ليس معجزًا في نفسه، بل بأمر خارج عنه.

أما الذين يقـولون: إن القرآن مـعجز في نفـسه، وأنه جاء في نـظمه ولفظه وتأليفه على وصف لا يهتدي إليه الخلق أبدًا، شأنه في إعجازه شأن إحياء الموتى، فكما لا يمكن إحياء الموتى إلا بفعل الله سبحانه، كذلك لا يمكن أن يكون نظم مثل نظم القرآن إلا من الله سبحانه .

وإذا فتشنا في زعـمهم أن القرآن معجز بالصـرفة، لوجدنا أن في ذلك إنكارًا بأنه وحي منزلٌ على النبي عَائِشِهِم، وإنما خطر على ذهنه بدافع الإلهام والهاجس الذي يهجس بالقلب، ولاشك أن هذا القول يتطرق إلى الإلحاد، وذلك مما يستعاذ بالله منه .

بشرانه التحزاليجيز

فصلل

(في نمييز الكلام بعضه من بعض وما يترتب عليه)

٥٠ - اعلم أن البكاء والداء العياء (١) أن ليس علم الفصاحة وتمييز بعض الكلام من بعض بالذي تستطيع أنْ تَفْهمه من شئت ومتى شئت، وأنْ لست ملك من أمرك شيئًا حتى تظفر بمن له طبع إذا قَدَحْته وري (٢) ، وقلب إذا أريته (٣) رأى. فأمَّا وصاحبُك مَنْ لا يَرَى ما تُريه، ولا يهتدي للّذي تَهْـديه، فأنْتَ معه كالنّافخ في الفَحْم من غَيْـر نَار، وكالملتمس الشّمّ منْ أَخْشَـم (١) ، وكمـًا لا تُقيم الشـعرَ في نفس من لاّ ذُوق له، كذَّلك لا يضهم هذا الباب من لم يُؤت الآلة (٥) التي بها يَفْهم - إلا أنَّه إنَّمَا يكون البلاء وإذا ظن العادم لها أنه قل أوتيها، وأنه ممن يكمل للحكم ويصح منه القضاء، فجعل يَخْبط ويَخْلط (٢٠)، ويقول القول لو علم غبه (٧٠) لاستحيى منه.

وأمَّا الذي يُحسُّ بالنقص في نفسه، ويعلم أنه قد عَدمَ علمًا قَدْ أُوتيه مَنْ سواه، فأنت منه في راحة، وهو رجل عاقل قلد حَمَاهُ عَقْلُه أَنْ يَعْدُو طُورَه (٨)، وأَنْ يتكلّف ما ليس بأهل له.

وَإِذَا كَانَتُ العلوم التي لها أُصُولُ مُعرُوفة، وقوانينُ مضبوطةٌ، قد اشترك الناس في العلم بها، واتَّفَـقُوا على أنَّ البناء عليها والرَّدُّ إليها، إذا أَخْطأ فيها المُخْطئ، ثُمَّ أعجب برأيه لم تَستَطع رَدّه عن هُواه (٩) ، وصَرفه عن الرأي الذي رأى، إلا بعد الجُهُد، وإلاَّ بعد أن يكون حَصيفًا (١٠) عَاقلاً ثَبْتًا، إذًا نَبُّه انتبُّه، وإذا قيل: «إن عليكَ

⁽٣) أريته: مكنته من الرؤية . (١) الداء العياء: المرض الوبيل. (٢) ورى: اتقد واشتعل.

⁽٤) الأخشم: الذي لا يمكنه شم الرائحة: طيبة أو منتنة .

⁽٦) يخبط ويخلط: يفسد الأمور لإقحام بعضها في بعض.

⁽٨) يعدو طوره: يتجاوز حده.

⁽١٠) حصيفًا: ذكبًا أربيًا.

⁽٥) الآلة: الوسيلة.

[.] ٧) غيه: عاقبته .

⁽٩) رده عن هواه: عن رغبته .

فصل

٥٠- ومن البلاء أن علم الفصاحة وتمييز الكلام بعضه عن بعض ليس في مقلدور الناس جميعًا، وإنما هو خاص بمن له طبع سليم إذا قلدحته اتقلد وتقبل الكلام.

أما إذا كان الشخص لا يهتدي بما تريد هدايته به، فأنت معه كالنافخ في الرماد من غير فحم ولا نار، وكمن يعرض الشعر لمن لا ذوق له.

فكذلك علم الفصاحة والبلاغة لا يتسسر إلا لمن امتلك آلاته وأسبابه من طبع سليم وذوق رقيق.

والآفة الكبرى والبلاء العميم أن يظن العادم للطبع الفاقد للذوق أنه قد أوتي أسباب البلاغة، وهو منها عار، فتراه يخلط الأمور ويتخبط في الأقوال، ولو علم عاقبة أمره لاستحيى من كلامه.

وأما الذي يحس النقص في نفسه فأنت منه في راحة؛ لأنه يعرف قدره، ولا يتجاوز حده، ولا يتكلف ما ليس له.

والعلوم لها قوانين منضبوطة قد اتفق الناس عليها، فإذا أخلُّ بها المرء روجع وصرف عن قوله، ولا يكون ذلك إلا بعد بذل الجهد معه، وإلا إذا كان عاقلاً إذا نبه إلى شيء انتبه إليه، وابتعد أن يتمسك برأي دون حجة. ومن كانت هذه صفته كان نادراً وعزيزاً. بَقَيَّةً مِن النَّظُرِ»، وتَقَفَ وأصْغَى، وَخَشِي أَنْ يَكُون قَد غُرَّ() ، فَاحْتَاطَ بِاسْتِمَاعِ مَا يُقَال لَهُ، وأَنفَ مِنْ أَنْ يَلِجَّ() مِنْ غَيْرِ بَيِّنَة، ويستطيل بغير حُجَّة. وكان مَنْ هَذَا وَصْفُهُ يعزُ ويقلُّ، فكيفَ بأنْ تَرَّدَّ النَّاسَ عن رأيهم في أمر الفصاحة، وأصْلُك الذي تردُّهم إليه، وتُعول في مُحاجَّتهم (على عليه، استشهادُ القرائح، وسَبرُ النفوس وفَلْيُها() ، وما يعرض فيها من الأرْيحيَّة () عندما تسمع وهم لا يَضَعُون أنفسهم موضع من يَرى الرأي ويُفْتي ويَقْضِي، إلا وعندهم أنَّهم ممن صَفَتْ قَرِيحته () ، وصَحَ ذوقُهُ، وتَمَّت أداتُه.

فإذا قلت لهم: «إنكم أُتيتُم من أنفسكم، ومن أنكم لا تَفْطُنُون»، رَدُّوا مثله عليك، وعابُوك، ووقعوا فيك، وقالوا:

«لا، بل قرائحنا أصحُّ، ونظرُنا أصدقُ، وحسنَّنا أذْكَى، وإنَّمَا الآفةُ (٧) فيكم، فإنّكم جئتم فَخَيَّلْتُم إلى أنفسكم أُمورًا لا حاصلَ لها، وأوهمكم الهوَى والميلُ أنْ تُوجبوا لأحد النَّظمين المتساويين فضلاً عن الآخر، من غير أن يكون له ذلك الفضلُ "، فَتَبْقَى في أيديهم حسيرًا (٨) لا تَمْلكُ غير التعجب.

فليس الكلامُ إذَنْ بمُغْن عنك، ولا القولُ بِنَافِع، ولا الحُجَّةُ مسموعةٌ، حتى تجدَ مَنْ فيه عونٌ لك، ومَنْ إذا أَبِي عليك أَبَى ذَاك طَبْعُه فرده إليك، وفتح سَمْعه لَك، ورَفع الحجاب بَيْنه وبينك، وأخَذَ به إلى حَيثُ أَنْت، وصَرَف ناظرَه إلى الجهة التي إليها أومَأت (١١) أَنْسًا، وأراك من بعد الإباء (١١) قَبُولاً، وبالله التوفيق.

ÔÓÔ

(٦) صفت قريحته: صفا ذهنه.

(٨) حسيراً: حزينًا كثيبًا مجهدًا.

⁽١) يخشى أن يكون قد غرّ: خدع .

⁽٣) تعول في محاجتهم: تعتمد عليه في جدالهم .

⁽٤) سبر النفوس وفليها: النفاذ إلى أغوار النفس وتفتيشها .

⁽٥) الأريحية: الارتباح والنشاط.

⁽٧) الآفة فيكم: العيب بداخلكم.

⁽٩) أومأت: أشرت .

⁽١٠) النفار: الجفاء.

⁽١١) الإباء: الامتناع.

فكيف إذا كان الأمر متعلقًا بالفصاحة، التي يعول فيها على حدّة القريحة، وذكاء القلب، وصفاء النفس، وصحة الذوق.

وإذا راجعتم في ذلك تبجحوا معكم، فهم أصح قريحة وأصدق نظرًا وأذكى حسّا، والآفة فيك وليست فيهم، فلا تملك إلا أن تقف حزينًا متحسرًا على أقوالهم وادعاءاتهم.

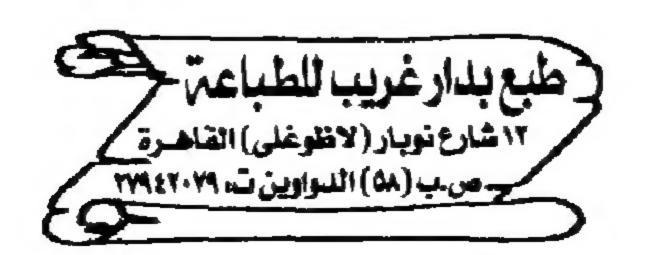
وكلامك معهم لا يغني من الأمر شيئًا ولن يعيدهم إلى الصواب، فلا قولك معهم بنافع، ولا حجتك فيهم مقبولة، لأن طباعهم خشنة وأذواقهم بليدة.

أما من يفتح سمعه ويعي كلامك، ويرفع الحجاب الذي أسدل بينك وبينه، فإنه يرجع عن جموحه، ويصبح جفاؤه أنسًا وإباؤه قبولاً، والله الموفق.

فهرسالوصوعات الموضوع الصفحة مقدمة المحقق الإمام عبد القاهر الجرجاني أولاً: إعجاز القرآن (دراسة) للدكتور عبد القادر حسين معجزة القرآن أبعد معجزات الرسول عليا أثرا ما قاله بلغاء العرب عن فصاحة القرآن. القرآن معجز للعرب وغير العرب * وجوه إعجاز القرآن. رأي الجاحظ في الإعجاز 14 12 12 * الإخبار عن المستقبل. 14 # أخبار الأمم البائدة 14 * الإعجاز العددي * الإعجاز العلمي 40 * نظم القرآن رأي الباقلاني - عبد القاهر 49 ابن عطية - العلوي. 22 محمد فريد وجدى ثانيًا: كتاب الرسالة الشافية للإمام عبد القاهر الجرجاني... 45 * جُمُلٌ من القول في «إعجاز القرآن»..... 45 * الأصل والقدوة في إعجاز القرآن هم العرب، ومن عداهم تبع لهم، والمتأخرون من الخطباء والبلغاء بعد زمان النبي عَلَيْكُمْ ،

الأحوال الدالة على عجزهم حين تُحُدُوا بالقرآن...

٤٤	الأقوال الدالة على عجزهم حين تحدوا بالقرآن
٥٢	الاحتجاج لدلالة هذه الأحوال والأقوال على إعجاز القرآن
[* فَصُلٌ في شبهة من قال: «جرت العادة بأن يبقى في الزمان من
	يفوتُ أهله حتى يسلِّموا له، وحتى لا يطمع أحدٌ في مُدَانَاته»
QA.	والدليل على بطلان ذلك
٦.	* الأخبار الدالة على اختلاف الناس في أي الشعر أشعر
77	بيان في تقديم الشعراء وتفضيلهم من أي وجيٍّه يكون؟ بريي
٧.	* الشرط فيما ينقُضُ العادة (يعني المعجزة) أن يعم الأزمان كُلَّها
	قول الملحدة إنه كان في المتأخرين من البلغاء من استطاع معارضة
Υ٤	القرآن، فترك إظهاره خوفًا القرآن، فترك إظهاره خوفًا
	* فَـصِلْ، في فن آخر من السؤال هو: من عادات الناس أن الواحد
	تواتيه العبارة في معنى، وتمتنع عليه في آخـر، والقول فـيمن غلب
77	على معنى، فلم يبق لغيره مرام فيه
۸.	* ما جاء على هذا الوجه من الكلام المنثور
	* إبطال الاحتجاج بمثل ذلك في إعجاز القرآن، وتفصيل القول في
AY	معنى «التحدي»
4.	* فَصُلُ في الذي يلزم القائلين بالصِرفة من المعتزلة
47	في سياق آية التحدي ما يدل على فساد قولهم
1.4	الله الله الشافية المسالة الشافية المسالة الشافية المسالة الشافية السافية المسالة السافية المسالة السافية المسالة السافية المسالة السافية المسالة المسافية
1.4	* فَصِارٌ خَامَّة الكلام
	* فِصَلُ فِي قَـول من قال: «إنه يجـوز أن يقدر الواحد من الناس بعد المُحْدُ مُ اللهِ وَمَا اللهِ مِعْدُ اللهِ و
114	مضى وقت التحدي، على أن يأتي بما يشبه القران»، وهو قول أصحاب «الصرفة».
, , ,	الطبيعات "الطبوقة"، أن
112	الله ما أن الله الله الله الله الله الله الله الل
1112	الد مستطيع ال تفهمه من سنت مي سنت
117	١٠٠٠٠ ٠٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠
<u></u>	<u> </u>





0 7/119

الدكتوم/عيدالقادرسين

- حصل على الدكتوراد ١٩٧٠ م بمرتبة الشرف الأولى. وعنوانها أثر النحاة في البحث البلاغي.
- وهو أستاذ ورئيس قسم البلاغة بجامعة الأزهر وله ثلاثون كتاباً في البلاغة والحديث والتفسير ما بين مؤلف ومحقق كقن البلاغة وفن البديع والقرآن والصورة البيانية ومن الكتب المحققة ، الإكسيرفي علم التفسير للطويخ والإشارات والتنبيهات في علم البلاغة للجرجاني والإيضاح للخطيب القزويني وخلاصة المعاني للمفتي وأصول البلاغة لميثم البحراني وغيرها من المؤلفات الشهيرة.
 - وناقب ش الكثير من رسائل الماجستير والدكت وراه وحضر العديد من المؤتمرات الأدبية والبلاغية قيم مخارحها

هنها الكتاب

وكتاب الرسالة الشافية في الإعجاز لإمام البلاغيين الشيخ عبد القاهر الجرجاني (تالاه) كتاب جم الخطر ، كثير النفع لما فيه من تحليل شاف ومناقشة رائعة وعمق شديد وقد اعترى الكتاب شيء من الغموض في بعض عباراته بحيث لا يكتشف المعنى في وضوح تام فرأيت أن أوضح ألفاظه وأفسر معانيه فكان شرح اللفظ في هامش الصفحة اليمنى التي وضع فيها نص كتاب الرسالة الشافية وتفسير المعني في الصفحة اليسرى المقابلة للنص. كما أردت أن أمهد لأراء عبد القاهر في الإعجاز بذكر أقوال العلماء السابقين واللاحقين اللاعجاز بذكر أقوال العلماء السابقين واللاحقين حتى ينكشف الخبيء وتعم الفائدة.

3



122

59